أجاثا كريستي

جثة في قبر مفتوح

دار النجمة للنشر والتوزيع

جثّة في قبر مَفتوح

أجاثا كريستي

جثّة في قبر مَفتوح

دار النجمة للنشر والتوزيع

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر:
دار النجمة للنشر والتوزيع

يُمنَع تصوير أو إعادة إنتاج هذا الكتاب
ورقياً أو إلكترونياً إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

للاستفسار والطلبات التجارية
AgathaBooks@sardira.com

الفصل الأول

جرت هذه الأحداث في يوم من أيام شهر يونيو، حيث كنت قد أنهيت بعض أعمالي في فرنسا ثم اتجهت إلى لندن حيث المنزل الذي يعيش معي فيه فيه الشرطي السرّي البلجيكي هيركيول بوارو. وكان القطار يكاد يكون خالياً من الصحبة عند اتجاهه إلى ميناء كاليه، بل حتى لم يكن في العربة التي كنت فيها سوى شخص واحد، أو على الأصح لم يكن فيها سوى امرأة واحدة.

كنت أشغل نفسي بالنظر إلى أمتعتي خوفاً من أن أكون قد نسيت شيئاً منها في المحطة، ولهذا لم أهتمّ بزميلتي في العربة إلى أن وجدتها تفتح زجاج النافذة وتنظر هنيهة ثم تعود إلى الوراء هاتفة: تبّاً!

وأنا من المحافظين، أي أنني كنت أرى أنه يجب أن تتصرف المرأة بشكل لبِق لائق بها كامرأة، لهذا لم أكن أتحمّل التعامل مع هذا النوع من الفتيات اللاتي لا يتمتّعن بالوقار والاحتشام، واللاتي يدخنّ السجائر فكأنهن مداخن المصانع، ويمارسن الرقص في الحانات طوال الليل حتى الصباح، وينطقن بما تخجل منه عاملات الموانئ.

كانت تلك المرأة فتاة حسناء جريئة العينين شعرها منسدل

على كتفيها كالليل، وكانت تناهز الثامنة عشرة ولكنها كانت مبالِغة في وضع مساحيق الزينة على وجهها وشفتيها، كما أنها لم تُخجِلها نظراتي التي تنطق بالدهشة، بل بادلتني النظرات بتحدٍّ وهي تقول بأسلوب شبه ساخر: يا للغباء! أظنني خدعت هذا الرجل المحترم. أقدّم اعتذاري عن أقوالي غير اللائقة بفتاة تحترم نفسها، وما يُقال في هذه المواقف، ولكن عذري أنني تهت عن أختي وسط الزحام!

- هذا مؤسف حقّاً!

فقالت ثانيةً بذات الصوت شبه الساخر: هذا السيد المهذّب ليس براضٍ عنّا أنا وأختي، وهذا ظلم شديد لأنه لم يقابلها من قبل ولم يتعرف عليها.

وحاولت أن أرد عليها إلاّ أنها قالت بسرعة: لا تبرّر موقفك ولا تنفِ ما قلتُه؛ أنا لم أجد في الكون من يحبّني ويرضى بي. وسأحيا بين الحيوانات وآكل ورق الشجر. كل آمالي تحطمت!

ثم خبّأت تعبيرات وجهها خلف صفحات صحيفة فكاهية، وبعد هنيهة وجدتها تنظر إليّ خلسة من فوق حافّة الصحيفة فلم أستطِع إلاّ الابتسام، فوجدتها تلقي بالصحيفة إلى جوارها وتضحك بانطلاق وسعادة وتقول: أنت غير ثقيل الظل كما توهّمت.

كانت الضحكات تنبع من قلبها فوجدتني أبادلها الضحك غير مكترث بعبارة ثقيل الظل، بينما قالت: أظننا الآن صديقَين.

ثم أعقبت بعد هنيهة: أنا في الواقع أميل نحوك، لقد شعرت بهذا منذ رأيتك، ولكن ظهر عليك الضيق من عبارات وتصرفاتي حتى اعتقدت أننا لا يمكن أن نصبح صديقَين.

فابتسمتُ في وجهها وقلت: ولكن هذا ما حدث. حدّثيني عن نفسك.

- أنا ممثّلة، ولكنني لست من ذلك النوع الذي أظنّك لا تحبه. ابتدأت تجربتي في التمثيل على المسرح حين كنت في السادسة، كنت ألعب، فقط ألعب.

- تلعبين؟!

- ألم تشاهد من قبل صغاراً يؤدّون ألعاباً في السيرك؟

- نعم، نعم، لقد فهمت.

- لقد وُلدتُ في أمريكا، ولكن عشت معظم عمري في لندن، وأعمل أنا وأختي في الوقت الحالي في مسرح جديد.

- أنتما الاثنتان؟!

- نعم، نحن الاثنتان نمارس الغناء والرقص والفكاهة والألعاب البهلوانية. ما نقوم به هو شيء جديد، ولكننا أحرزنا نجاحاً كبيراً و...

وظلّت تحكي عن عملها بألفاظ لم أستوعب الكثير منها، ولكن كنت مأخوذاً بكلامها؛ فقد كانت فيما أرى تجتمع فيها براءة الأطفال ومرح المراهقين وخفّة ظل فتاة حسناء جذّابة التي تتمنّى العين أن تظلّ تنظر إليها طول الوقت.

دخل القطار ليون التي أثارت ذكريات عديدة في نفسي، ولاحظت رفيقتي نظراتي الشاردة فقالت متسائلة: أهذه هي ذكرى الحرب؟

- نعم، هي الحرب!

- هل شاركت فيها؟

- نعم، وقد أُصبت مرة، ثم تركت الخدمة العسكرية بعد دنكرك نظراً لمرضي، وأعمل الآن سكرتيراً لعضو من أعضاء البرلمان.

- يحتاج هذا العمل قدرات ذهنية عالية!

- ليس لهذه الدرجة يا عزيزتي، أنا أعمل في اليوم لمدة ساعتين على الأكثر، ولا أعمل إطلاقاً خلال أيام عطلة البرلمان. هذا العمل يثير ملَلي في الغالب، ولا أدري كيف كنت سأحيا دون عملي الآخر وهوايتي الأخرى.

- هل أنت من هواة جمع الطوابع؟

- بل يشاركني السكن رجل بلجيكي عجيب كان ضابط مباحث من قبل. أنشأ مكتباً خاصاً في لندن، وقد نجح فيه نجاحاً كبيراً منقطع النظير، وكم تفوّق على رجال المباحث الرسميين في كشف غموض الجرائم. إنه في الحقيقة حادّ الذكاء بشكل مدهش!

استمعت إليّ بعينين تملؤهما الدهشة وقالت: هذا شيء رائع! أنا أحب الأحداث البوليسية بشدّة، بل أنا لا يفوتني فيلم بوليسي وأول ما أطالعه في الصحف هو أخبار الحوادث.

أخذت أحكي لها بعض مغامرات بوارو التي أماط فيها اللثام عن بعض الجرائم وهي تستمع بدهشة كبيرة، إلى أن وصل بنا القطار إلى ميناء كاليه، حيث نزلت هي وصافحتني قائلة: طاب

يومك يا عزيزي، سوف أحاول تهذيب كلماتي في المستقبل.

فقلت لها بلهفة: أيمكن أن تبقي معي لأراعيك في أثناء عبور القنال؟

فأجابت بأسف: أنا مضطرة للبحث عن أختي، ولن يمكنني العودة إلى لندن إلاّ بعد عثوري عليها، وداعاً.

- لا، لا بدّ من لقائنا مرة ثانيةً! ولكن... أنا لم أعرف اسمك حتى الآن! ما اسمك؟

وتحرّك القطار فضحكت هي وقالت: سندريلا... اسمي سندريلا.

ولم أكن أعرف في ذلك اليوم إن كنت سأراها مرة ثانية أم لا.

* * *

الفصل الثاني

في التاسعة وخمس دقائق من اليوم التالي دخلت غرفة الجلوس التي يشاركني فيها بوارو لتناول طعام الإفطار، فوجدته يُعِدّ بعض البيض ليتناول طعامه بدوره، فجلست معه قائلاً: هل هناك جديد يا صديقي؟

فقال دون مبالاة: لم أقرأ حتى الآن بريد اليوم، وأظنني لن أجد فيه شيئاً مهمّاً. لم يعُد المجرمون في هذه الأيام يبتكرون في طرقهم كمجرمي الأمس.

قالها وهو يهزّ رأسه بحزن مما جعلني أضحك وأقول: لا تأسَ يا عزيزي بوارو، ربما تغيّر الحظ. فلتفتح البريد فربما كان فيه ما يثير اهتمامك.

راح بوارو يفتح بريده قائلاً: هذه فاتورة وتلك أخرى وهذه ثالثة، من الواضح أنني صرت كثير الإسراف في هذه السن. هذا خطاب من المفتش غاب يشكرني فيه على مساعدتي له في حلّ قضية إيرزويرث. ولكن ما هذا؟!

وفجأة تغيّر صوته ولاحظت في نبراته اهتماماً كبيراً. وبعد قراءته للرسالة التي كانت معه مدّ يده بها إليّ وقال: هذه رسالة

تستدعي الاهتمام بالفعل. اقرأها يا عزيزي.

فبدأت أقرأ الرسالة التي كان مكتوباً فيها:

فيلاّ جنيفييف، مصيف ميرلنفيل

السيد العزيز بوارو،

أنا أحتاج مساعدة من رجل مباحث خاص محترف مثلك، وبعد أن أذكر لك السبب في ذلك ستعلم لماذا لم ألجأ إلى رجال المباحث الرسميين. كثيرة هي المصادر التي سمعت منها عنك، ولقد طالعت في الجرائد أخبار تلك الجرائم التي كشفتَ أسرارها، وقد أيقنت أنك كتوم لأسرار عملائك. لست أبغي إخبارك عن أسراري في مجرّد رسالة بريدية، بل يكفي أن أخبرك بأني صرت أحيا في خوف مستمرّ على حياتي وأظن الخطر قريباً جداً، فأرجو أن تحضر إلي في فرنسا حتى تحميني. سأبعث بسيارة تلقاك في ميناء كاليه لتأتي بك إلى بيتي إذا أنت أرسلت إليّ برقية تخبرني فيها بموعد حضورك، وأتمنى منك ترك كل ما وراءك وتكريس كل جهدك لتحميني. أنا مستعدّ لدفع الأجر الذي تطلبه وما ينشأ من نفقات. ربما أحتاج مساعدتك لوقت طويل، بل ربما أرسلتك إلى سنتياغو بجمهورية تشيلي التي أمضيت فيها قسطاً كبيراً من عمري، وسأكون سعيداً إذا حدّدتَ ما يلزمك من أتعاب بلا قيد ولا شرط.

المخلص: ب. ت. رينولد

ثم قرأت تحت التوقيع ملاحظة تقول: «أتمنّى من كل قلبي

أن تأتي بسرعة»، وكانت تلك الملاحظة قد كُتبت بسرعة وبخط غير واضح.

وأعطيت الرسالة لبوارو وأنا مضطرب قائلاً: ها قد وجدنا ما يثير الاهتمام في بريدك.

فقال لي وهو يفكّر: أجل، أظن هذا.

- بالطبع سنذهب إليه.

فأومأ بوارو برأسه إيجاباً وقد بدا العزم على وجهه وكأنه ينوي على شيء بعينه، ثم بدا جادّاً وهو ينظر في ساعته ويقول: لا وقت لدينا لتضييعه؛ فسيتحرّك القطار السريع من محطة فكتوريا في تمام الساعة ١١ صباحاً. أرجو ألاّ يصيبك الارتباك لأن لدينا وقت كاف، نعم، لدينا قرابة عشر دقائق يمكن جعلها للتحاور حول هذا الموضوع. بالطبع ستجيء معي، أليس كذلك؟

ثم قال مردفاً بعد هنيهة: أظنني سمعت اسم هذا الرجل رينولد من قبل.

فقلت له وأنا أحاول التذكّر: أظنني أعرف مليونيراً جاء من أمريكا الجنوبية اسمه رينولد، ولكن لا علم لديّ إن كان هو مرسل الخطاب أم لا.

فقال بوارو وقد حزم أمره: بل هو بالتأكيد نفس الرجل، ألم تقرأ قوله بأنه قد يبعث بي إلى سنتياغو بجمهورية تشيلي؟ وتشيلي تقع في أمريكا الجنوبية كما تعلم. أظن الأمر يتطوّر بشكل سريع. ما قولك في تلك الملاحظة تحت الإمضاء؟

فأجبت بعد وقت قصير من التفكير: أظنه حين كتب الرسالة

كان متمالكاً لأعصابه، ولكنه حين انتهى من كتابتها كان مضطرب الأعصاب مما جعل الملاحظة الأخيرة تظهر بخط سيئ.

- أظن نفس ما تظنه، ولهذا علينا الإسراع لإنقاذ هذا الذي أرسل يستغيث.

- أين يقع مصيف مِيير لينفيل؟

- هذا مصيف صغير جميل بين كاليه وبولون.

- أظن للسيد رينولد منزلاً في إنكلترا، أليس كذلك؟

- بلى، أعرف أن له قصراً كبيراً في رتلاندغيت وآخر يقع في الريف قرب هيرتفوشير، وأنا أعرف عنه القليل لأنه غير اجتماعي، وأظنّ له ثروة كبيرة يدير من خلالها استثمارات في تشيلي التي أمضى فيها أغلب سنين حياته.

- ليكن، سنعرف كل التفصيلات منه نفسه.

ثم التفت وقال بحزم: هيا لنعدّ أمتعتنا في حقائب السفر. أرى أنه من الكافي أن يأخذ كل منّا حقيبة صغيرة، ثم نقوم باستئجار سيارة تقلّنا حتى محطة القطار.

* * *

انطلق القطار السريع في تمام الساعة الحادية عشرة من محطة فكتوريا إلى ميناء دوفر ونحن في داخله. وكان بوارو قد بعث ببرقية إلى السيد رينولد ليُعلِمه بموعد وصول القطار إلى كاليه، وبعد عبورنا المانش ووصولنا كاليه لم نجد سيّارة في انتظارنا كما كان السيد رينولد قد أشار في رسالته مما جعل بوارو يظن

أن البرقية لم تصل في موعدها المناسب، فاستقللنا سيارة أجرة إلى ميرلنفيل. وبينما كنا في الطريق هزّ بوارو رأسه قائلاً: أشعر بانقباض شديد!

- انقباض! من ماذا؟

- لست أعرف حقاً، بل هو إحساس يعتمل في نفسي، وأظننا لن نصل في الوقت المناسب.

قال هذا بصوت جادّ حزين جعلني أشعر بنفس الشعور، فاستطرد يقول: وأظن الأمور ستتطوّر إلى أزمات تحتاج وقتاً طويلاً لكشف أسرارها.

وقبل أن أجيبه كنا قد بلغنا ميرلنفيل وبدأنا في السؤال عن طريق فيلاّ جنيفييف فأجابنا أحد المارّة: موقعها في الناحية الأخرى من المدينة قرب الشاطئ على بعد نصف الميل من هنا، وهي تبدو كأنها قصر صغير.

أكملنا سيرنا وقد تركنا المدينة خلفنا إلى أن بلغنا مفترقاً للطرُق؛ فسألنا مزارعاً عن طريق تلك الفيلاّ، وقد أبصرت فيلاّ بالقرب منّا على الطريق الأيمن ولكنها كانت فيلاّ صغيرة لا شيء فيها من مظاهر الغِنى. وبينما كنّا نتكلّم مع ذلك المزارع إذا بي أرى فتاة بجانب باب الفيلاّ تنظر نحونا، أمّا ذلك المزارع فقال لسائق السيارة: فيلاّ جنيفييف تقع بعد مسافة قصيرة من هنا، تقع تماماً وراء هذا الانعطاف على اليمين.

فقدّم له السائق الشكر واستكمل السير، ولكن عينيّ بقيتا عالقتَين بتلك الفتاة الواقفة بجوار باب تلك الفيلاّ الصغيرة وهي تستند بيدها على الباب. كانت طويلة هيفاء القدّ كأنها من ملكات

الجمال، وكانت ذهبية الشعر ترسل شعرها فيتألّق أمام أشعة الشمس حتى خلتها أروع فتاة أبصرتها عيناي فهتفت قائلاً لبوارو بعد غيبتها عن مجال رؤيتي: هل لاحظت يا صديقي تلك الجميلة الصغيرة؟

فأجابني بعدم اكتراث: ربما، لم أدقّق النظر نحوها.

فقلت له بعناد: ولكنك أبصرتها تماماً.

- يندر أن يرى شخصان مختلفان نفس الشيء ويكون لهما نفس الرأي فيه. أنت رأيت الجمال أما أنا...

فقلت له متسائلاً: أنت ماذا؟

فأجاب وهو شارد الذهن: لقد رأيتها فتاة صغيرة خائفة العينين.

توقفت بنا السيارة في تلك اللحظة أمام الفيلاّ فوجدنا رجلاً من الشرطة يقترب منّا ويقول بعد أن وجدَنا ننزل من باب السيارة: الدخول ممنوع.

فهتفت به قائلاً: ماذا هناك؟ نحن على موعد مع السيد رينولد.

فقال رجل الشرطة: لقد قُتل السيد رينولد في الصباح.

* * *

الفصل الثالث

صاح بوارو بعينَين ملؤهما الغضب: ماذا؟ كيف؟ ومتى؟ وأين؟

فشدّ الرجل من قامته باعتداد وقال متحدّياً بوارو: أنا لن أجيب عن أية أسئلة.

فقال له بوارو بلهجة واثقة: بالتأكيد مفتش الشرطة بالداخل، أليس كذلك؟

فقال الرجل: بلى، إنه في الداخل.

فقدّم له بوارو بطاقته الخاصة وهو يقول: أرجو أن تقدّم له هذه البطاقة؟

فأمسك الشرطي البطاقة وقدّمها لأحد زملائه، فتغيّب لحظات ثم عاد وبصحبته رجل ضخم تتناسب ضخامته مع ضخامة شاربه الكثّ قال لنا بفرحة شديدة: كم يسعدني حضورك يا صديقي العزيز! لقد وصلت في الوقت المناسب تماماً.

فظهرت السعادة والبشر على وجه بوارو قائلاً: السيد بكس! كم أنا سعيد برؤيتك، أقدّم لك صديقي الإنكليزي الكابتن

هيستنغز، وأقدّم لك يا عزيزي هيستنغز صديقي مفتش الشرطة السيد لوسيان بكس.

فقمنا بتبادل التحية نحن الثلاثة، بوارو ومفتش الشرطة وأنا. ثم استدار لوسيان نحو بوارو وقال: مضت سنوات لم نلتقِ فيها يا عزيزي بوارو، ربما منذ ساعدتنا في قضية أوستند. ثم تابع حديثه وقد بدت الجدّية على وجهه: أظنك حضرت لتفيدنا بمعلومات وصلتك يمكن أن تكشف خبايا هذه الجريمة.

- يمكنني أن أتبيّن أنك لم تعرف بعد أنني كنت مدعوّاً للحضور على عَجَل.

- ومن قام بدعوتك إلى هنا؟!

- القتيل نفسه دعاني، وكان من الواضح أنه يعرف أن هناك من كان يهدّد حياته.

فقال رئيس الشرطة الفرنسي هاتفاً: كان إذن يتوقّع أن يُقتل! هذا يهدم نظرياتنا من أساسها.

عند ذلك دخلنا الفيلاّ وهو لا يزال يقول: لا بدّ أن نخبر محقّق القضية السيد هوتيت بما قلته لي فوراً. لقد بدأ التحقيق منذ قليل بعد فحصه مسرح الجريمة.

فسأله بوارو وقد بدأ الأمر يستغرق تفكيره: ما توقعاتكم لموعد حدوث الجريمة؟

- تم اكتشاف جثة القتيل في نحو التاسعة من صباح اليوم، في حين يبدو من أقوال السيدة رينولد وأقوال مجموعة الأطباء المعالجين للقتيل أنها قد تمت قبل ذلك بسبع ساعات على الأقل،

أي أنها قد تمت في نحو الثانية بعد منتصف الليل.

ثم أشار نحو باب الفيلاّ الداخلي وقال: تفضّلا.

ودخلنا إلى بهو متّسع حيث جلس شرطي إلى جوار باب لإحدى الغرف الجانبية سأله رئيس الشرطة: أين ذهب السيد هوتيت؟

- في حجرة الاستقبال يا سيد بكس.

فاتجهنا مع السيد بكس إلى باب غرفة الاستقبال التي كانت على اليسار من البهو حيث كان المحقّق السيد هوتيت جالساً أمام منضدة صغيرة إلى جوار كاتب التحقيق. كان السيد هوتيت طويلاً نحيلاً نظراته ثابتة وقد وخط الشيب لحيته. ولاحظنا أن هناك رجلاً كبيراً متدلي الكتفين يقف إلى جوار النافذة في تلك الغرفة، وقد أخبرنا بكس فيما بعد أنه الدكتور ديورانت.

وبعد تعارف سريع قال المحقّق لصديقي: ما تقوله يثير العجب يا سيد بوارو! أمعك تلك الرسالة التي تقول إن القتيل أرسلها إليك؟

فأجابه بوارو بالإيجاب وأخرج الرسالة من جيبه وأعطاها للمحقق الذي قرأها ثم قال: توضح الرسالة أن هناك أسراراً خاصة تتعلّق بالجريمة، ولكن القتيل لم يبيّن أيّاً من تلك الأسرار في الرسالة. نحن على أية حال نشكرك يا سيد بوارو، ويسعدنا بقاؤك معنا لكشف ذلك الغموض المحيط بهذه الجريمة، أم أنت مضطر للعودة إلى لندن؟

فقال بوارو بابتسامة واسعة: لا لا يا سيد هوتيت، سأبقى

معكم إلى حين القبض على الجاني. يكفيني شعوراً بالذنب أني لم أصل إلى موكّلي في الوقت المناسب.

فقال له المفتش بامتنان: هذا كرم عظيم منك يا سيد بوارو، وأظن السيدة رينولد تريد بقاءك وتريد أن تساعدك في الوصول إلى القاتل.

ثم نظر في ساعته وقال: السيد غيرود مفتش المباحث الموفَد من إدارة أمن باريس يجب أن يحضر الآن، وأظن أن تعاونكما سوف يؤدّي إلى كشف غموض هذه الجريمة في وقت قريب. ومن دواعي سروري أن تحضر معي التحقيق الآن، ولك أن تلقي أيّ سؤال يخطر ببالك على أيّ من الشهود.

فقال بوارو بابتسامة امتنان: لك الشكر يا سيدي، أنا الآن لا أعرف شيئاً عن تفصيلات الحادث.

فطلب المحقق من رئيس الشرطة السيد بكس أن يقصّ التفصيلات على بوارو ليكون على علم بكل النقاط الهامة غير الهامة فيها، فقال بكس: عندما بدأت العاملة فرنسواز عملها في الصباح كان الباب الأمامي للفيلاّ مفتوحاً على غير العادة، فخافت فرنسواز أن يكون المنزل قد تعرض للسرقة مما جعلها تسرع إلى حجرة الطعام لتجد أدوات الطعام الفضّية في مكانها المعتاد، فاطمأنت إلى أن الفيلاّ لم تتعرض للسرقة، وكل ما دار بخلدها أن سيدها قد خرج لممارسة الرياضة في الصباح الباكر ونسي الباب مفتوحاً.

وهنا قاطع بوارو السيد بكس بقوله: عذراً يا سيد بكس، لي سؤال خاص بهذه النقطة: هل كان من عادة المجني عليه أن يخرج

للتريّض في الصباح الباكر؟

فأجاب بكس كمن كان ينتظر السؤال: لم يكن المجني عليه يمارس الرياضة في الصباح، ولكن الإنكليز (كما تعتقد الخادمة) مجانين ولهم طرق عجيبة في الحياة ولهم فيها مفاجآت كثيرة، ففكرت أن تستدعي سيدتها لتخبرها بالأمر، ولكنها فوجئت بالخادمة الشابة ليونيه تصيح بفزع لأنها وجدت السيدة رينولد مكمّمة الفم مقيّدة اليدين في غرفتها. وقد حدث ذلك في نفس الوقت الذي جاء فيه نبأ العثور على جثة السيد رينولد مطعوناً بخنجر في ظهره.

فقال بوارو متسائلاً: وأين وُجدت الجثة؟

فقال بكس بحيرة: تلك أعجب نقطة في الجريمة كلها؛ لقد وُجدت الجثة مسجاة على وجهها في قبر مفتوح!

فهتف بوارو بعَجَب: ماذا؟!

فقال بكس مؤكّداً على كلامه: كما أخبرتك يا سيد بوارو، وُجدت الجثة في قبر حديث هو عبارة عن حفرة حديثة على بُعد قليل لا يعدو بضع خطوات من السور الخارجي للفيلاّ.

فقال بوارو وهو لا يزال على حيرته: وهل كانت الوفاة قد تمت منذ وقت طويل عند اكتشاف الجثة؟

فترك بكس الإجابة للدكتور ديورانت الذي قال: عندما فحصت الجثة اليوم صباحاً وجدت أن الوفاة كانت قد تمت قبل ذلك بسبع ساعات على الأقل وعشر ساعات على الأكثر.

فقال بوارو مفكّراً: معنى هذا أن الرجل قُتل في الفترة بين

الثانية عشرة مساء والثالثة صباحاً.

فقال الدكتور ديورانت: هو ما تقول، وقد رجّحت السيدة رينولد أن الجريمة قد تمت بعد الثالثة صباحاً وأن الوفاة تمت بسرعة، كما أنها تقول إنه من غير المعقول أن تكون الحادثة انتحاراً.

فأومأ بوارو إيجاباً في حين قال السيد المحقق هوتيت: بعد إنقاذ السيدة رينولد وفكّ قيود رِجلَيها وأغلال يديها وكمامة فمها كانت مضطربة اضطراباً شديداً كما كان يبدو على ملامحها الضعف الشديد، وقد قالت إن شخصَين مقنَّعَين ولجا غرفتها وقاما بتكميمها وتقييدها ثم أجبرا السيد رينولد على الخروج معهما. هذه المعلومات لم تخبرنا بها السيدة رينولد نفسها بل أخبرتنا بها الخادمتان اللتان أنقذتاها وفكّتا قيودها وأغلالها وكمامتها.

فسأل بوارو: وهل سألتموها؟

- لا؛ لقد ازداد اضطراب السيدة رينولد بعد سماعها بوقوع الجريمة مما جعل الدكتور ديورانت يقدّم لها حال وصوله بعض المهدّئات التي جعلتها تستغرق في النوم. وحتى الآن لم يمكنّا أن نأخذ أقوالها لأنها لا تزال نائمة، ولكن الدكتور ديورانت يقول إنها سوف تستيقظ من نومها هادئة الأعصاب.

فتساءل بوارو قائلاً: من هم المقيمون في الفيلاّ؟

- هناك الخادمة العجوز فرانسواز مديرة البيت التي استبقاها السيد رينولد في خدمته بعد شرائه للفيلاّ من أصحابها الأساسيين الذين عاشت في خدمتهم سنين طويلة. وهناك أيضاً الأختان دينيس أولارد وليونيه أولارد اللتان تسكنان في ميرلنفيل وهما من أسرة

محترمة عريقة. وهناك السائق الذي استقدمه السيد رينولد من إنكلترا، وهو في إجازة في الوقت الحالي. وهناك أخيراً السيدة رينولد وابنها الشاب جاك رينولد، وهو حالياً في مهمّة خارج البلاد.

وهزّ بوارو رأسه دلالة على استيعاب الموقف في حين نادى المحقق أحد الشرطيين واسمه مارشود، فأقبل الشرطي مارشود فقال له المحقّق: أحضر إلينا فرانسواز.

وحين حضرت فرانسواز قدّر بوارو أنها تزيد عن الخمسين من العمر، وكان الخوف واضحاً جليّاً في عينيها حين كان المحقق يسألها: اسمك فرانسواز آرشير، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي.

- كم عملت في هذه الفيلاّ؟

- أنا أعمل هنا منذ أحد عشر عاماً مع أصحابها الأصليين، وحين اشتراها منهم السيد رينولد طلب مني أن أبقى للعمل لديه. لم أكن أتخيل أن...

فقاطعها قائلاً برفق: بالطبع، بالطبع يا سيدة فرانسواز. ولكن أخبريني بأمر الباب الخارجي، من يقوم بإغلاقه ليلاً؟

فقالت فرانسواز وقد ازداد خوفها: أنا يا سيدي المسؤولة عن ذلك، وأحرص دائماً على إغلاقه في المساء.

- وماذا حدث في الليلة الماضية؟

- لم يحدث جديد يا سيدي؛ لقد أغلقته من الداخل كما أفعل كل ليلة.

فقال وهو ينظر في عينيها مباشرة: أواثقة أنت من أنك فعلتِ هذا؟

- بالطبع يا سيدي، ويمكنني أن أقسم على هذا بأغلظ الأيمان.

- في أي ساعة قمت بإغلاق الباب؟

- في العاشرة والنصف مساء كما اعتدت منذ عملت هنا.

- هل كان بقية المقيمين في المنزل قد أوَوا إلى غُرَفهم في ذلك الوقت؟

- الوحيد الذي بقي مستيقظاً بعد ذلك هو السيد رينولد نفسه، أما السيدة رينولد فكانت قد صعدت إلى غرفتها قبل أن أغلق الباب بقليل، والأختان دينيس وليونيه صعدتا معي بعد إغلاقي الباب.

- معنى هذا أن السيد رينولد هو الذي قام بفتح الباب، أليس كذلك؟

فقالت العجوز بحيرة: ولماذا يفتحه سيدي؟ ليدخل منه اللصوص وقُطّاع الطرق؟! من يفعل ذلك شخص سفيه، وسيدي لم يكن سفيهاً قط.

ثم قالت وقد تنبهت إلى نقطة ما: أو ربما فعل هذا عند خروج السيدة...

فانتبه بوارو و قاطعها المحقق بحدّة قائلاً: السيدة! أية سيدة تقصدين؟

- تلك التي جاءت أمس لزيارته، والتي كانت تزوره كثيراً في أمسيات مختلفة كثيرة.

- من هي؟ ماذا تعرفين عنها؟

ظهر شيء من المكر في عينَي الخادمة العجوز وهي تقول في شبه اعتراض: وكيف أعرفها يا سيدي ولم أُدخِلها إلى المنزل بنفسي؟

فصاح المحقق في وجهها بغضب وهو يضرب بقبضته على المنضدة: توقّفي عن هذا العبث المقيت أيتها العجوز واذكري اسم تلك السيدة التي كانت تزور السيد رينولد؟

فقالت فرنسواز وهي تهزّ كتفيها: لا شأن لي بهذا كله... تلك المرأة هي السيدة دوبريل.

فقال المحقق وقد فوجئ بالاسم: السيدة دوبريل! ساكنة فيلاّ مرغريت القريبة.

فقالت العجوز بخبث: هي نفسها يا سيدي، يا لها من امرأة جميلة!

فأومأ برأسه وهو يقول مفكّراً: إذن فقد كانت هناك صلة بينها وبين السيد رينولد، أليس كذلك؟

فقالت العجوز ولم تزل تلك النظرة الماكرة في عينيها: وأنّى لي أن أعرف؟ ولكن السيد رينولد كان ثريّاً في حين أنها فقيرة وجميلة وأنيقة جداً، وهي تحيا حياة هادئة مع ابنتها الشابة، ولكل إنسان ماضيه الخاص، وعلى الرغم من تجاوزها لمرحلة شبابها فهي لم تزل رائعة الجمال. والحقيقة التي لاحظها كل سكان المدينة أنها

قد ظهر عليها الثراء في الفترة الأخيرة.

فقال المحقق وهو ينظر في عينَي العجوز: ما ردّ فعل السيدة رينولد تجاه هذه العلاقة؟

فهزّت العجوز كتفيها وهي تقول: كانت هادئة رقيقة لدرجة يمكن معها أن تقول إنها لم تكن ترتاب في شيء، ولكني أرى أن عينيها لم تكونا تكشفان عمّا في سريرتها؛ لقد بدأت في الفترة الأخيرة تزداد ضعفاً وشحوباً. وقد ظهر أيضاً التغيّر على السيد رينولد وبدأت أعصابه تتوتّر حتى يصل في بعض الأحيان إلى ما يقارب الانهيار العصبي. بالطبع له مشكلاته الخاصة التي تزعجه، خاصة إذا تعلّق الأمر بعلاقة غير شرعية مع امرأة جميلة مثل السيدة دوبريل.

فقال المحقق: هل رأيت السيدة دوبريل عند انصرافها؟

فقالت الخادمة العجوز: لا، لم أرَها يا سيدي، ولكني سمعتهما عند خروجهما من مكتب السيد رينولد الذي حيّاها ثم أغلق الباب.

- في أية ساعة تم هذا؟

- أظنها كانت العاشرة وخمس دقائق يا سيدي.

- متى اتجه السيد رينولد إلى غرفة نومه؟

- بعد انصراف السيدة دوبريل بنحو عشر دقائق.

- وكيف سمعتِه؟

- درجات الدرَج تُحدث صوتاً عالياً إذا صعد عليها أحد،

خاصة في سكون الليل.

- هل سمعت شيئاً بعد ذلك؟

- لا، لا شيء يا سيدي.

- أيّ الخدم كان أول من نزل في الصباح؟

- كنت أنا أول من نزل يا سيدي، وعند ذلك كان باب الفيلاّ مفتوحاً كما سبق وأخبرتك.

- هل كانت نوافذ الطابق الأرضي جميعاً مغلقة؟

- كانت جميعها مُحكَمة الإغلاق يا سيدي ولم يكن هناك ما يثير الريبة في أمرها.

فقال المحقق وقد انتهى من تحقيقه معها: يمكنك الانصراف يا فرانسواز.

فاتجهت نحو الباب، ولكنها حين بلغت عتبته التفت وقالت: أقول لكم بكل ثقة إن السيدة دوبريل فاسدة شرّيرة، وأنا أُقرّ بهذا على مسؤوليتي.

بعد ذلك تم استدعاء الخادمة ليونيه أولارد التي جاءت تبكي باضطراب. وحين سُئلت قالت إنها وجدت السيدة رينولد مكمَّمة الفم مغلولة اليدين في غرفتها بجوار سريرها، وقالت إنها لا تعرف شيئاً غير ما قالته. ثم استُدعيَت أختها دينيس التي أيّدت أقوال أختها ولم تزِد عليها إلاّ أن قالت إن السيد رينولد كان قد ظهر عليه التغيّر في الفترة الأخيرة، وكان مما قالت: كان يزداد حزنه واضطرابه واكتئابه وقلقه كل يوم عن اليوم الذي يسبقه. أنا متأكّدة

من أن السبب الحقيقي وراء تلك الحالة التي أصابته هو عصابة المافيا السرّية، وأظن أن هناك اثنين من أعضاء تلك العصابة كانا يتبعانه من أجل قتله.

- ربما كان قولك صحيحاً. هل أنتِ التي فتحت الباب للسيدة دوبريل عند حضورها لزيارة السيد رينولد مساء أمس؟

- لا يا سيدي، لقد كان ذلك مساء أول أمس، لا أمس.

- جاء في أقوال فرنسواز إن السيدة دوبريل قامت بزيارة السيد رينولد مساء أمس، فما قولك في هذا؟

فقالت الخادمة الشابة تؤكّد أقوالها: التي جاءت لزيارته مساء أمس كانت سيدة غير السيدة دوبريل.

شعر المحقق بالدهشة فأعاد سؤاله على الخادمة الشابة التي أصرّت على قولها فقالت: كانت تلك السيدة سوداء الشعر صغيرة السن قصيرة القامة مقارَنةً بالسيدة دوبريل.

- هل رأيت تلك السيدة من قبل؟

- إطلاقاً يا سيدي، ولكنها تبدو إنكليزية.

- إنكليزية؟ وكيف أدركتِ هذا؟

- حين سألَتني عن السيد رينولد كانت تتحدّث الفرنسية بلكنة إنكليزية واضحة، وعند خروجها من المكتب مع السيد رينولد كان يحدّثها باللغة الإنكليزية.

- ماذا سمعتِ من حديثهما؟ هل كنتِ تستطيعين فهم كلامهما؟

- أنا أتحدث الإنكليزية بطلاقة، ولكنها كانت سريعة جداً في حديثها بحيث لم يمكنّي إدراك حديثها. ولكني سمعت العبارة الأخيرة التي قالها سيدي وهو يودّعها عند الباب؛ لقد سمعته يقول لها: بالطبع، بالطبع، ولكن أستحلفك بالله أن تنصرفي الآن!

صرف المحقق الخادمة الشابة دينيس وظل لحظات يفكر، ثم استدعى الخادمة فرانسواز مرة ثانية ليسألها إن كانت على ثقة من أن زائرة الليلة السابقة كانت هي السيدة دوبريل نفسها، ولكن الخادمة أكّدت أقوالها واتهمت دينيس بأنها مغرورة غبيّة تحبّ التظاهر بإجادة اللغة الإنكليزية. وأكّدت فرانسواز أيضاً أن سيّدها لم يكن يتحدّث مع أحد بالإنكليزية مع إلاّ ابنه جاك لأن الأخير لم يكن يجيد التحدّث بالفرنسية.

فصرفها المحقق ثم أرسل يستدعي السائق، فعلم أنه كان في إجازة لبضعة أيام منحه إياها السيد رينولد لأنه لم يكن يحتاجه في تلك الفترة.

عندئذ ظهر على ملامح بوارو القلق والدهشة فطلب حضور فرانسواز، فلمّا حضرت سألها: في غياب سائق السيد رينولد هل كان يقود سيارته بنفسه؟

- لا يا سيدي، لم يكن يقودها بنفسه.

فقال بوارو: أواثقة أنت ممّا تقولين؟

- نعم يا سيدي، واثقة تمام الثقة.

وبعد انصرافها قلت لبوارو متسائلاً بدهشة: ماذا يقلقك يا بوارو؟

فقال بوارو وهو لا يزال في تفكيره: لقد ذكر السيد رينولد في خطابه الذي أرسله لي أنه سوف يرسل لي سيارة تنتظرني في ميناء كاليه، أليس كذلك؟

فقلت له محاولاً إيجاد تفسير: من الممكن أنه كان يقصد أن يرسل سيارة أجرة.

- ولماذا يمنح السائق إجازة إذا كان يعرف أنني سوف أحضر؟ لماذا لم يُبقِه في عمله حتى اليوم لاستقبالنا؟! أليس ذلك أفضل من إرساله سيارة أجرة؟

وفكر بوارو قليلاً وأدار الأمر في رأسه ثم قال في نفسه: هل يمكن أن يكون قد منحه تلك الإجازة قبل حضورنا لسبب ما في نفسه؟

* * *

الفصل الرابع

بعد مغادرة فرنسواز للغرفة قال المحقق للسيد بكس: لدينا الآن شاهدتان متناقضتان في أقوالهما، فمن نصدّق منهما؟

فقال بكس بثقة: علينا أن نصدّق دينيس لأنها هي التي قامت باستقبال تلك الزائرة، وأنا أرى فرانسواز تشعر بالغيرة من دينيس، ولهذا تريدها أن تبدو أمامنا في شكل الكاذبة. وهناك معلومات تقول إن هناك علاقة بين السيد ورينولد وامرأة أخرى.

وهنا تناول المحقق إحدى الرسائل من الأوراق التي كانت أمامه وهو يقول صائحاً: كيف نسينا أن نخبر السيد بوارو عن هذا؟!

ثم أعطى الرسالة لبوارو وهو يقول: لقد وُجد هذا الخطاب في أحد جيوب المعطف الخاص بالمجني عليه.

فتح بوارو ذلك الخطاب الذي كانت ورقته مهترئة منكمشة وكان مكتوباً باللغة الإنكليزية:

حبيبي رينولد،

ما الذي جعلك تتوقّف عن إرسال رسائل إليّ طوال تلك المدة؟ أنت بالطبع مازلت تحبّني، أليس كذلك؟

لماذا جاءت رسالتك الأخيرة باردة متغيّرة عن كل الرسائل التي قبلها؟ كل ما أخشاه أن يكون حبّنا قد انتهى بالنسبة لك. صدّقني يا حبيبي، لو أن حبّنا قد انتهى بالفعل بالنسبة لك فربما أقتل نفسي؛ لا يمكنني الحياة دونك! حين أتخيل وجود امرأة غيري في حياتك أصاب باليأس والإحباط. ولكن عليك أن تحذر؛ فلن أتردّد في التخلص منها إن وجدت أنها تريد أن تحرمني منك. آه، ما هذا الذي أهذي به؟ لا شك أنك تحبّني وأنني أحبّك، أحبك من كل ذرّات نفسي.

حبيبتك: بيللا

ولم تكن الرسالة تحتوي على عنوان للكاتبة، فأعطاها بوارو للمحقّق الذي قال: أنا أرى يا سيد بوارو أن السيد رينولد كانت له علاقة بامرأة هي بيللا قبل أن يأتي للإقامة هنا، وحين جاء ليقيم في هذه الفيلاّ نشأت بينه وبين السيدة دوبريل علاقة أخرى أدّت إلى هدوء حبّه تجاه بيللا، مما أدّى إلى ارتياب بيللا في هذا الأمر؛ فأرسلت إليه بهذه الرسالة تهدّده فيها تهديداً واضحاً. غيرة المرأة لا سلطان عليها، وقد أُصيب السيد رينولد في ظهره، مما يشير إلى أن القاتل امرأة.

فقال بوارو بعد أن فكر لحظة: الطعنة في ظهره تشير بالتأكيد إلى أن القاتل امرأة، ولكن ما رأيك في تلك الحفرة الكبيرة التي وُجدت فيها الجثة؟ ما من امرأة تستطيع وحدها حفر حفرة كبيرة عميقة كهذه ولا بدّ أنها من عمل رجل.

فقال بكس هاتفاً: يا إلهي! هذا صحيح، كيف فاتتنا هذه الملاحظة؟

وهنا قال المحقق: كان الأمر في البداية سهلاً بسيطاً، وفجأة بدأ التعقيد عندما عرفنا قصّة المقنَّعَين والرسالة التي وصلت إلى السيد بوارو.

ثم التفت إلى بوارو وسأله: هل خطر لك أن السيد رينولد كان قد أرسل لك حتى تحميه من بيللا؟

فقال بوارو بثقة: رجل مثل رينولد لن يطلب من أيّ شخص أن يحميه من امرأة أياً كان شرّها وقدرتها. لقد كان السيد رينولد مغامراً في بلاد بعيدة وعاش في حياته الكثير من المصاعب، ورجل بهذا الشكل لا يمكن أن يطلب الحماية من غدر امرأة.

فهزّ المحقق رأسه مؤمّناً على كلام بوارو في حين قال بكس: سأرسل برقية استدعاء لمدير شرطة سنتياغو ليرسلوا لنا كل ما يتعلّق بحياة المجني عليه هناك، أعمال وعلاقاته وأعدائه... وسيكشف هذا بكل تأكيد الكثير من الأمور أمامنا.

فقال بوارو مستحسناً الفكرة: هذا أفضل ما يمكن أن نفعله في الوقت الحالي يا سيد بكس.

ثم سأل المحقق قائلاً: هل كانت هناك رسائل أخرى لتلك المرأة بيللا بين الأوراق؟

فأجاب المحقق قائلاً: لا يا سيد بوارو. لقد بذلنا الكثير من الجهد في البحث، ورغم ذلك لم تكن هناك رسائل أخرى. كل ما وجدناه كان وصية جديدة، والباقي أوراق لا قيمة لها.

ثم أخرج ورقة من السجلّ الموضوع أمامه قال وهو يطالعها: لقد ترك في وصيّته ألف جنيه للسيد ستونر سكرتيره الخاص. ثم

رفع رأسه وقال لهم: السيد ستونر يقيم في إنكلترا منذ نحو ثلاثة أسابيع. ثم عاد ينظر في الورقة ويقول: وباقي الثروة تركه لزوجته، والوصية لا شبهة فيها من الناحية القانونية وقد وقّع عليها اثنان من الخدم كشاهدين.

فقال بوارو متسائلاً: متى تمّت كتابة هذه الوصية؟

- كُتبت منذ نحو أسبوعين، أي منذ بدأ يشعر بالخطر على حياته. ولكن علينا ألاّ نتسرّع في الحُكم من خلال هذه الوصية، فمن الواضح أنها تُظهِر تقديره لها رغم علاقاته بغيرها من النساء.

فقال المحقق: هذا صحيح، ولكني أرى في هذه الوصية ظلماً شديداً للابن جاك الذي سيجد نفسه معتمداً كل الاعتماد على أموال أمّه التي يمكن أن تتخذ زوجاً آخر من الممكن أن يستولي على أموالها فيُحرَم منها جاك.

فقال بوارو وهو يهزّ كتفيه بحنق: أغلب الظن أن السيد رينولد لم يكن يعتقد أن زوجته يمكن أن تتزوّج بعده.

فقال له المحقق: من الممكن أن يكون رأيك صحيحاً يا سيد بوارو. أرى أنه يجب أن تشاهد المكان الذي تمت فيه الجريمة.

ثم قال في شبه اعتذار: يؤسفني أن الجثة تم رفعها من موضعها، ولكننا قمنا بتصوير الجثة قبل رفعها من مكانها، وتلك الصور ستوضّح تماماً الوضع الذي كانت عليه قبل رفعها.

وحين غادرنا الغرفة أشار بوارو إلى باب مقابل وقال: هذه حجرة المكتب على ما أعتقد.

فأجاب المحقق وهو يفتح باب تلك الغرفة: أجل، هي

كذلك. تفضّل لتتفقّدها.

وكانت غرفة صغية متناسقة الأثاث فيها خزانة للكتب وبعض المقاعد الوثيرة ومنضدة وُضع فوقها أحدث إصدارات المطابع الإنكليزية.

تفحّص بوارو الغرفة ببصره ثم مدّ يده يمسح على سطح المنضدة ثم قال معجَباً: لا توجد ذرّة غبار واحدة!

فقال له المحقق: لقد تمّ تنظيف الغرفة جيداً.

عند ذلك أبصر بوارو جزءاً منثنياً في طرف السجّادة المفروشة على أرضية الغرفة (ولم يكن بوارو يطيق رؤية شيء في غير موضعه) فانحنى يبسط ذلك الطرف المنثني، وعند ذلك وجد قصاصة ورق تحت ذلك الجزء المنثني، فأمسكها بوارو وهو يقول: يتشابه كثيراً الخدم في فرنسا مع الخدم في إنكلترا؛ فهم جميعاً يصيبهم الكسل عن تنظيف ما هو تحت السجاجيد.

نظرنا جميعاً بدهشة إلى ذلك الجزء الصغير من الورقة، وقد تعرّف المحقق على كُنْهها بسرعة فقال: هذه قصاصة من شيك ممزّق.

وكان مكتوباً على تلك القصاصة اسم «دوفين»، ولكنه كان مكتوباً بخط سريع، فقال بكس: هذه القصاصة من شيك يُصرَف لشخص اسمه دوفين.

فقال له بوارو: هذا الخط خط السيد رينولد، فهو إذن الذي كتب هذا الشيك.

وحين قمنا بمقارنة الخط الذي كُتب به اسم دوفين بالخط

الموجود في مفكّرة كانت على المكتب وجدنا أن كلام بوارو صحيح، فقال بكس: كيف أسهو عن مثل هذه الورقة عند بحثي في هذه الغرفة عن الأدلة؟ هذا خطأ كبير.

فاطلق بوارو ضحكة مرحة وقال: عليك بالقاعدة التي تقول: «ابحث تحت السجاجيد»، هذه هي قاعدتي في البحث. حين أبصرت الثنية في طرف السجّادة توقّعت فوراً أنه يمكن أن أجد تحتها شيئاً، وأغلب الظن أن الخادمة فرنسواز أو إحدى الشابتين الأخريين قد أهملت التنظيف تحت السجّادة، وأظن السيد رينولد كان قد كتب هذا الشيك ثم تخلّص منه بتمزيقه لسبب ما.

وفي أثناء هذا الحوار أرسل بكس في طلب فرانسواز، وحين أتت سألها بكس قائلاً وهو يشير لها بالقصاصة التي وجدها بوارو: لقد وجدنا هذه القصاصة من أحد الشيكات، فهل وجدت بقية القصاصات التي تمثّل الشيك الممزَّق؟

- نعم، لقد جمعت بعض القصاصات الممزَّقة من فوق السجّادة، ولا بدّ أنني تركت هذه سهواً.

- وأين وضعت ما جمعته من قصاصات؟

- في نار المدفأة يا سيدي.

وفي يأس تامّ طلب بكس منها الانصراف، ثم بدأ يبحث عن دفتر الشيكات حتى وجده، فحاول معرفة اسم صاحب الشيك الممزَّق بالكامل من خلال قراءة كعب الشيك الأخير ولكن الكعب كان خالياً من أية أسماء، فقال بوارو مشجّعاً له: إياك والإصابة باليأس يا صديقي، ما زال في جعبتنا الكثير، فأنا على يقين من أن تلك العجوز فرانسواز سوف تخبرنا عن ذلك المجهول صاحب

الشيك رجلاً كان أم امرأة.

فقال له بكس مستبشراً: بالطبع، أنت على صواب، فلنذهب من هنا.

وحين كنا نهمّ بالانصراف قال بوارو: بالتأكيد كان السيد رينولد قد استقبل زائرته بالأمس في هذه الغرفة.

- وكيف لك أن تعرف هذا؟

رفع بوارو كفّه فإذا به ممسك بين أصابعه بشعرة طويلة سوداء ويقول: كانت هذه الشعرة النسائية فوق مسند أحد المقاعد في الغرفة.

اتجهنا إلى الناحية الخلفية للفيلاّ فرأينا كوخاً صغير الحجم مبنياً بجوار الجدار الخلفي للفيلاّ، فأخرج بكس مفتاح الكوخ من جيبه قائلاً: هذا هو الكوخ الذي نقلنا إليه جثة القتيل بعد فراغ المصوّرين من عملهم.

وفتح الكوخ فدخلنا لنجد الجثة على الأرض وقد تمت تغطيتها بملاءة بيضاء رفع بكس طرفها عن الوجه لنرى وجه القتيل. كان القتيل رجلاً يزيد سنّه عن الخمسين عاماً، ظاهر الشيب معتدل القامة حليق الوجه تبدو على لون بشرته آثار عيشه في المناطق الاستوائية معظم أيام حياته. ولكن ملامح موته الظاهرة على وجهه كانت توحي بفزعه ودهشته وخوفه ساعة القتل.

وبعد أن شاهد بوارو بقعة الدم التي تلوّث السترة الرمادية التي كان القتيل يرتديها حرّك الجثة على جانبيها قائلاً: من الواضح أن عملية الطعن تمت من الخلف. هل عرفتم شيئاً عن السلاح الذي تمت به عملية القتل؟

فقال بكس: كان السلاح في الجرح حين وجدناه، والسلاح عبارة عن فتّاحة خطابات تشبه الخنجر الصغير ولها مقبض أسود ونصلها صغير ولكنه حادّ.

ثم أشار إلى إناء زجاجي موضوع في أحد أركان الحجرة وهو يقول: ها هو السلاح في هذا الإناء الزجاجي.

أمسك بورو السلاح بمنديل ولمس نصله بطرف إصبعه وقال: يا له من سلاح حادّ! هل وجدتم عليه أي بصمات؟

- يبدو أن القاتل كان يرتدي قفازاً فلم يترك أيّ بصمات.

فقال بوارو بسخرية حانقة: لقد أصبح المجرمون المبتدئون يعرفون هذه الحقيقة، بل لقد أصبح البعض يضعون بصمات مزيفة حتى يضلّلوا رجال الشرطة.

ثم قال بدهشة وعجب وهو ينظر إلى الجثة: لماذا يرتدي المجني عليه ملابسه المنزلية؟!

فقال له بكس بلهجة لا تقلّ عجباً: حقيقة لست أدري، ولقد أثار هذا تعجّبنا ودهشتنا.

في ذلك الوقت سمعنا صوت طرقات على الباب، ثم فُتح الباب بعدها ودخلت الخادمة العجوز فرانسواز وهي تقول: لقد أفاقت سيدتي، وهي الآن مستعدّة لإجراء التحقيق معها.

وبينما كنّا متّجهين نحو الفيلاّ سمعت بوارو يقول متأمّلاً الجثة التي كان بكس قد أعاد وضع الغطاء فوقها: هذا المعطف يبدو أطول من مقاس السيد رينولد الطبيعي!

* * *

الفصل الخامس

حينما كنّا نصعد الدرَج قال بوارو ونحن نسمع صوت صرير أرجلنا فوقه: هذا الصرير مزعِج إلى درجة توقظ الموتى!

وفي نهاية الدرَج من أعلى كان هناك ممرّ متفرّع منه، فقال بكس يشرح لنا: هذا هو الممرّ الذي ينتهي بجناح الخدم.

ومشينا في الممرّ المقابل لممرّ جناح الخدم ثم توقّفنا أمام باب غرفة السيدة رينولد الذي طرقته فرانسواز، ثم سمعنا صوتاً واهناً من الداخل يدعونا للدخول. ولما دخلنا وجدناها غرفة واسعة مطلّة على ساحل البحر بحيث كان الشاطئ يبعد عنها بنحو نصف الكيلومتر. كانت السيدة رينولد تستند على مقعد مريح وُضعت عليه الوسائد الوثيرة. كانت سيدة تبدو في عينيها قوة شخصيتها رغم الضعف والهزال البادِيَين في جسمها، وكان لها شعر أسود كثيف وخطه الشيب على الرغم من أن الشباب كان ظاهراً في قسمات ملامحها، إذ كانت تبدو في العقد الرابع من العمر.

أومأت السيدة رينولد برأسها علامة تحيّتها لنا ثم أشارت إلى المقاعد المنتشرة في الحجرة: تفضّلوا بالقعود بعد إذنكم.

فقعدنا ثم قال المحقق هوتيت الذي كان الكاتب قد قعد إلى

جواره وأمامه منضدة صغيرة: سيدة رينولد، أتمنى قبل كل شيء ألاّ يزعجك هذا الحوار. هل يمكن أن تقصّي علينا كل ما حدث في تلك الليلة؟

- لا يزعجني هذا على الإطلاق يا سيدي؛ أنا مدرِكة لقيمة الوقت بالطبع وأعرف أن هذا هو السبيل إلى أن تقبضوا على القاتل.

فقال لها بكس بصوت هادئ: شكراً لك على تفهّمك يا سيدتي. سوف أسألك بعض الأسئلة وأتمنى أن تكون إجاباتك دقيقة قدر الإمكان. في أيّ ساعة أوَيت إلى فراشك أمس؟

- لقد اتجهت إلى حجرتي في الساعة التاسعة والنصف لأني كنت أشعر ببعض التعب.

- ومتى اتجه زوجك بدوره إلى غرفة النوم؟

- بعدي بنصف ساعة تقريباً.

- هل كان قلقاً أو مضطرباً؟

- بل كان على ما اعتدته منه ولم يبدُ عليه أيّ تغيير.

- حسناً، ماذا حدث بعد ذلك؟

- لقد استغرقت في النوم حتى استيقظت عندما شعرت بيد تضغط على فمي، ولقد حاولت أن أصرخ طلباً للنجدة ولكن بلا فائدة، وحينما فتحت عينيّ رأيت في الغرفة شخصَين مقنَّعَين كان أحدهما يحاول أن يمنعني من الصراخ وطلب النجدة.

- أرجو أن تصفي لنا هذين الرجلَين بأقصى قدر من الدقة.

- أحدهما طويل القامة له لحية سوداء، في حين كان الآخر قصير القامة ذا لحية حمراء قليلاً وكان أميل إلى السمنة منه إلى النحافة، وقد كانا يخفيان وجهَيهما بحافّتَي قبعتَيهما.

فقال لها: وماذا حدث بعد ذلك يا سيدتي؟

قالت السيدة رينولد وهي تحاول تذكّر كل التفصيلات: حاول الرجل القصير أن يمنعني من الصراخ ثم شرع يكمّم فمي ويقيّد قدميّ ويديّ قيداً شديداً، في حين قام الآخر بتهديد زوجي بخنجر صغير كان موضوعاً فوق منضدة في الغرفة وكنّا نستخدمه في فتح الخطابات.

التقطت السيدة أنفاسها ثم عادت تتابع: وبعد أن أتمّ القصير قيدي وتكميمي قاما بإجبار زوجي على أن يخرج معهما، وعلى الرغم من أنني كنت أشعر بأنني على وشك الإغماء إلاّ أنني حاولت أن أستمع إلى ما كانا يقولانه، وقد فهمت بعض الكلمات من لغتهما. كانا يتحدثان بلغة إسبانية تُستخدم في أمريكا الجنوبية، وفهمت أنهما كانا يطلبان من زوجي شيئاً ما؛ فقد سمعت أحدهما يقول: "أنت تعرف السر وتعرف أننا نريده، أين هو؟ تكلم". وعند ذلك همهَم رينولد بألفاظ لم أدركها فقال أحدهما له: "نحن نعرف أنه لديك أيها الكاذب، فانطق وقل أين المفاتيح؟". عند ذلك سمعت أصواتاً تشبه أصوات فتح أدراج في الغرفة الخاصة برينولد، وقد كان في تلك الغرفة خزانة في أحد الجدران يضع فيها زوجي الكثير من أمواله كما يحتفظ فيها ببعض الأوراق الخاصة به، وقد أخبرتني ليونيه بعد ذلك أنها وجدت الخزانة مفتوحة وأن الأوراق كان متناثرة نتيجة عبث من أحد الأشخاص، كما أن الأموال التي كانت في الخزانة كانت قد اختفت كلها.

توقّفت السيدة رينولد عن الحديث هنيهة ريثما تلتقط أنفاسها مرة ثانية ثم عادت تقول: ثم اتضح لي أنهما لم يجدا ما كانا يبحثان عنه؛ فقد سمعت صوت أحدهما وهو يسبّ زوجي ثم يأمره بالخروج من المنزل معهما دون أن يرتدي الملابس الخاصة بالخروج. وعند خروجهم كانوا يمرّون بغرفة نومي فنظر لي رينولد وقال مصطنعاً الهدوء: "لا تخشَي شيئاً يا حبيبتي، سوف ينتهي كل هذا سريعاً ولن أتأخر عن الصباح". وعلى الرغم من كلماته المطمئِنة كنت أرى الخوف والفزع يطلاّن من عينيه.

فقال لها المحقق متسائلاً: لماذا خرجا عن طريق غرفتك؟ ألم يكن للغرفة المجاورة باب آخر؟

- لقد كانوا في غرفة الملابس التي لا مخرج منها إلاّ عن طريق غرفة النوم هذه. أظن أنني قد أُغمي عليّ فلم أُفِق إلاّ على صوت ليونيه وهي تُدَلّك قدميّ ويديّ وتسقيني بعض العصائر المنعشة.

عند ذلك تكلّم السيد هوتيت فقال: هل كانت لديك أيّ فكرة مسبقة عمّا كان هذان الرجلان يبغيانه من زوجك؟

- لا يا سيدي، ليست لديّ أي فكرة عن ذلك.

- ألم يخالجك الظن يوماً في أن زوجك يعيش خائفاً أو مضطرباً من شيء ما؟

- بلى يا سيدي، لقد ظهر عليه الكثير من التغيّر في الفترة الأخيرة.

- وكم تبلغ هذه الفترة؟

- نحو أسبوعين.

- هل سألتِه من قبل عن السبب في ذلك؟

- مرة واحدة فقط، وكانت إجابته لي مراوِغة مما جعلني أتركه وشأنه لأني لم أعتَد الإلحاح عليه في الأسئلة.

فاقترب السيد هوتيت منها وهو يقول: هل كنتِ على علم بأنه سأل أحد رجال المباحث الخصوصيين حمايته من خطر محدق به؟

فأجابت السيدة بدهشة شديدة: رجل مباحث خاص؟! لا، لم يخبرني بهذا مطلقاً!

فرفع المحقق يده مشيراً نحو بوارو قائلاً: هذا هو السيد بوراو، رجل المباحث الذي استقدمه السيد رينولد حتى يقوم بحمايته من ذلك الخطر.

ثم قدّم إليها الرسالة التي كتبها زوجها بخط يده وأرسلها إلى بوارو، وقد دُهشت السيدة رينولد أشد الدهشة وهي تقرأ الرسالة ثم قالت: لم أكن أعلم أيّ شيء عن هذا الموضوع، لم يخبرني زوجي بأيّ شيء من هذا!

فقال لها المحقق: حسناً، لقد تقطّعت بنا السبل في هذا الاتجاه، ولهذا أرجو منكِ أن تكوني معنا في غاية الوضوح والصراحة: هل كان لزوجكِ في أمريكا الجنوبية من الصراعات والمشاحنات الشخصية ما يمكن أن يكون له صلة بهذه الجريمة؟

وظلّت السيدة رينولد تفكّر برهة ثم قالت: أنا لا أتذكّر شيئاً بعينه، ولكن رينولد كان له العديد من الأعداء، وهذا عاديّ جداً

بالنسبة لأيّ شخص ناجح في مجال معيّن وثريّ كما كان زوجي.

فسألها بكس قائلاً: في أي وقت وقعت الجريمة في تقديرك؟

- في ذلك الوقت كانت الساعة الموجودة في بهو الفيلاّ تدقّ معلنة تمام الثانية صباحاً.

وفجأة انحنى بكس يمسك شيئاً ملقىً بجوار المنضدة وهو يقول: هذه ساعة سقطت وتحطمت بالتأكيد أثناء اقتحامهما المكان، وهي بالتأكيد سوف تخبرنا بالوقت الذي وقعت فيه الجريمة.

ثم نظر في الساعة وهتف قائلاً: ما هذا؟! هذا غير معقول.

فسألته السيدة رينولد بدهشة: ما الأمر يا سيدي؟

قال بكس وهو في حيرة: عقربا الساعة يشيران إلى الساعة السابعة.

فصاح المحقق بدهشة عظيمة: ماذا؟! السابعة؟

فأمسك بوارو الساعة ووضعها فوق أذنه لحظة ثم ابتسم وهو يقول: لم ينكسر إلاّ زجاج الساعة، أمّا تروسها فما زالت تعمل والعقارب تدور.

فارتاح الجميع لهذا التفسير المعقول، إلاّ أن المفتش قال وهو لا يزال في حيرته: ولكن الساعة الآن الخامسة لا السابعة.

فقال بوارو بحزم: الساعة الآن الخامسة وبضع دقائق، وربما كانت هذه الساعة تقدّم، أليس كذلك يا سيدة رينولد؟

فأجابت بقولها: هذه الساعة تقدّم أحياناً، ولكن ليس إلى هذه الدرجة.

فترك المحقق موضوع تلك الساعة وعاد يكمل أسئلته للسيدة رينولد قائلاً: كان باب الفيلاّ مفتوحاً في الصباح، أي أن هذين المجرمَين لم يدخلا منه بالقوة، فكيف تفسّرين لنا هذا؟

فقالت السيدة رينولد وهي تهزّ كتفيها: من الممكن أن يكون رينولد قد خرج لممارسة الرياضة قبل النوم فنسي إغلاق الباب من الداخل بعد عودته.

- هل كان معتاداً على ممارسة الرياضة؟

- نعم، وقد كان ضعيف الذاكرة، الأمر الذي جعله ينسى الباب دون أن يغلقه.

فقال السيد هوتيت: أظن أنه ما دام المجرمان قد أخذا السيد رينولد خارج المنزل فمعنى هذا أن ذلك السرّ يقع في مكان بعيد.

فقالت السيدة رينولد: لا أظنه بالبعيد ولا بالقريب؛ فقد أخبرني رينولد بأنه لن يتأخّر عن الصباح.

فسأل بوارو قائلاً: ما موعد آخر قطار يغاد ميرلنفيل؟

فأجابت السيدة رينولد: موعده قبل منتصف الليل بعشر دقائق، ويغادرها قطار آخر في الاتجاه الآخر في الثانية عشرة وسبع عشرة دقيقة، ولكني أظن أنهما قد غادرا المكان بسيارة.

فقال بوارو وقد أُصيب بخيبة أمل: أنتِ على حق؛ هذا احتمال قائم تماماً.

وعاد السيد هوتيت يوجّه سؤالاً للسيدة رينولد فقال: هل تعرفين شخصاً يُدعى دوفين؟

فقالت السيدة رينولد وهي تحاول التذكّر: دوفين؟ في الواقع أنا في الوقت الحالي لا يمكنني أن أتذكّر، وربما أكون قد سمعته من قبل وربما لا.

- هل تذكرين أنك سمعت السيد رينولد أو غيره يذكر اسم دوفين أمامك من قبل؟

- لا يا سيدي، لا أذكر هذا مطلقاً.

- هل تعرفين سيدة تُدعى بيللا؟

- لا يا سيدي.

- هل علمتِ أن زوجك استقبل امرأة أمس في الفيلاّ؟

فظهرت حُمرة خفيفة على وجه السيدة رينولد ولكنها قالت بثبات: لا يا سيدي، لا أعرفها. من السيدة بيللا هذه؟

رأى السيد هوتيت في تلك اللحظة أن السيدة رينولد قد أُصيبت بالإرهاق من كثرة الأسئلة، ولهذا تجاهل إجابة سؤالها وهو يشير إلى أحد مساعديه، فغاب ذلك الرجل قليلاً ثم عاد مرة ثانية وهو يحمل في يده ذلك الإناء الذي كان في ركن الكوخ الذي وُضعت فيه الجثة، فقال لها السيد هوتيت مشيراً إلى الخنجر الذي تمت به الجريمة: هل رأيتِ هذا الخنجر من قبل؟

فقالت بدهشة: هذا هو الخنجر الذي نستخدمه كفتّاحة للخطابات!

ثم انتبهت فجأة إلى الدماء التي تلوّثه فقالت بفزع: هل هذا دم؟

فأجابها السيد هوتيت: هو كذلك يا سيدتي، هذا هو الخنجر الذي تمت به الجريمة. أمتأكّدة أنت من أنه نفس الخنجر الذي تقصدينه؟

فقالت وعيناها معلّقتان بالخنجر: بالتأكيد يا سيدي، لقد كان هدية من ولدي جاك الذي كان طيّاراً في الحرب العالمية، ولقد قام بصنع هذا الخنجر من بقايا طائرة ألمانية محطّمة وأعطانيه هديةً تذكارية عن أيام الحرب.

فقال هوتيت: فهمت، هذا يجعلني أعجّل بالسؤال عن ابنك، أين هو الآن؟ علينا بالطبع إخباره بما حدث.

- جاك في طريقه إلى بيونس آيرس. كان رينولد قد أرسله في عمل في باريس ثم أبرق إليه أمس يطلب منه السفر إلى أمريكا الجنوبية في سفينة تقلع من ميناء شيربورغ إلى بيونس آيرس.

- ما السبب الذي جعل السيد رينولد يرسل جاك إلى بيونس آيرس؟

فقالت بحيرة: لا أعرف السبب حقيقة، ولكن بيونس آيرس لم تكن وجهة جاك الأساسية؛ فقد كان عليه الذهاب إلى سنتياغو.

وهنا هتف السيد هوتيت المحقق والسيد بكس مدير الشرطة بصوت واحد: سنتياغو؟!

وفي تلك الأثناء كان بوارو واقفاً شارداً أمام النافذة، ثم أقبل نحو السيدة رينولد وقال لها: عذراً يا سيدة رينولد، أيمكنني فحص

معصمَي يديك؟

أُصيبت السيدة رينولد بدهشة كبيرة ورغم ذلك مدّت يديها نحوه، فقام بفحص المعصمَين ولاحظ آثار ذلك القيد الذي أخبرتهم به، فقال لها: لقد آلمك هذا القيد بالتأكيد يا سيدتي.

فقال السيد هوتيت في تلك اللحظة: علينا سرعة الاتصال بجاك، وأرجو أن يكون في مكان قريب حتى نجنّبك المزيد من الآلام.

فقالت بلهجة قوية لا تخلو نبراتها من أسىً دفين: أتقصد أن أتعرّف على جثة زوجي؟

فأجابها المحقق بلهجة مشفقة: نعم يا سيدتي.

فقالت وهي تتحامل على دموع بدَت في عينيها: لا تخشَ شيئاً يا سيدي، فأنا امرأة قوية يمكنني احتمال الكثير ويمكنني مواجهة ذلك الموقف الآن وحدي. أنا مستعدّة.

فقال هوتيت: يمكننا تأجيل هذه العملية إلى الغد إذا أردتِ ذلك.

فقالت بلهجة متماسكة: لا يا سيدي؛ من الأفضل أن أفرغ منها ومن ثقلها على كاهلي الآن.

ثم قالت للطبيب بوهَن واضح: هل يمكنني الاستناد إلى ذراعك يا سيدي؟

فقدّم الطبيب ذراعه للسيدة رينولد بسرعة حتى استندت إليها. بعد ذلك ذهبنا إلى ذلك الكوخ، وعندما وصلنا إلى باب الكوخ

قالت السيدة رينولد وهي تغمض عينيها: هل يمكننا الانتظار لحظة حتى أهيّئ نفسي لهذا الموقف؟

ولم نكد نفتح باب الكوخ وألقت هي نظرة على جثّة زوجها حتى أطلقت آهة حزن قوية ثم صاحت: آه، زوجي، زوجي!

ثم سقطت مغشياً عليها في التوّ. وفي الحال أسرع الطبيب مع بعض من رجال الشرطة ليحملوها إلى خارج الكوخ، وفي تلك اللحظة قال بوارو بأسف شديد: يا لغبائي! أنا لم أعرف في حياتي من هي أكثر حزناً على زوجها ولا أكثر حبّاً له من هذه المرأة.

* * *

الفصل السادس

بعد أن تمّ إدخال السيدة رينولد إلى غرفتها وإرقادها في سريرها قال مدير الشرطة: يا لها من مسكينة! لقد كانت الصدمة أقوى من أن تتحمّلها.

ثم تنهّد تنهيدة قوية وقال: بالتأكيد لن نستطيع عمل شيء الآن. حسناً، هيا بنا يا سيد بوارو إلى مسرح الجريمة.

فقال بوارو: ليكن ما تشاء يا سيدي.

وكنا نعبر إلى داخل الفيلاّ إلى بابها الأمامي حين قال بكس: أليس من العجيب أن أحداً من الخدم لم يسمع صوت أقدام المجرمَين عند هبوطهما الدرَج مع السيد رينولد؟

فقال بوارو منبّهاً: هناك نقطة هامّة يا عزيزي بكس، لقد كانت الساعة قد تخطت منتصف الليل ولا بدّ أنهم كانوا مستغرقين في النوم.

فقال بكس بحيرة: هناك تساؤل يحيّرني، ما الذي يجعل المجرمَين يدخلان من باب الفيلاّ في حين أنه في إمكانهما أن يتسلّلا من إحدى النوافذ؟

فأشار بوارو بيده نحو نافذة الغرفة الخاصة بالسيدة رينولد

وقال: من الواضح أن هناك شجرة أمام نافذة غرفة النوم، وذلك يسهّل عملية التسلّل على المجرمَين.

في تلك اللحظة أقبل رجل من باب الفيلاّ فقال المحقق: مرحباً أيها المفتش غيرود، لم أعلم قبل الآن أنك وصلت. المحقق في انتظارك بلهفة.

وبينما كانا يتحدّثان كنت أنا أفحص المفتش غيرود الذي سمعت عنه الكثير والكثير فيما يخصّ حلّ القضايا وكشف غموضها. كان هو المفتش غيرود بإدارة الأمن العام في باريس، وكان في منتصف العقد الرابع من العمر وذا شعر وشارب كستنائيّين ثاقب النظرات قامته طويلة يبدو عليه الزهو والشعور بالذات.

قام السيد بكس بتقديمنا أنا وبوارو للمفتش غيرود فقال: هذا هو السيد بوارو، وهو زميل لنا في ميدان البحث الجنائي.

فظهرت معالم الاهتمام على ملامح غيرود الذي قال: لقد سمعت عنك الكثير يا سيد بوارو، وأظنك بنيت شهرتك في البحث الجنائي على الأساليب القديمة في البحث، ولكن هذه الأساليب لم يعُد لها مكان الآن في عالم الجريمة فهناك أساليب أكثر تطوّراً.

فقال بورارو بهدوء دون أن يبدو عليه شيء من الضيق: الجريمة هي الجريمة دائماً يا سيد غيرود.

كان من الواضح أن غيرود قد اتخذ من بوارو ومنّي موقفاً معادياً، ربما كان سبب ذلك أنه كان يكره أن يتدخّل أحد في قضاياه الخاصة، فبات من الواضح أمامنا أنه لن يُطْلِعنا على ما تقع عليه يداه من أدلّة.

قال السيد بكس في تلك اللحظة: المحقق السيد هوتيت...

ولكن غيرود قاطعه بشكل غير لائق وقال: يمكن أن ينتظر المحقق الآن؛ أنا أحتاج إلى ضوء النهار للبحث عن الأدلة ولن يستمرّ ضوء النهار أكثر من ساعة واحدة، ثم يمكننا غداً استجواب المقيمين في الفيلاّ، أما الأدلة فيمكن أن تضيع قبل طلوع النهار.

ثم نظر في بعض الأنحاء على الأرض وقال: لقد ملأ رجالك هذا المكان بآثار أقدامهم، كنت أظنهم يعرفون ما ينبغي في مثل هذه الحالة.

فردّ السيد بكس بلهجة ملؤها الضيق والامتعاض من أسلوب الرجل: هذه آثار أقدام العمّال الذين عثروا على جثة القتيل.

فقال غيرود وهو بادي الضيق: يمكنني رؤية أثار المجرمَين والمجني عليه عند خروجهم من بين الشجيرات التي تحيط الفيلاّ. يا لهما من مجرمَين ماكرين؛ لقد تركا آثار قدمَي المجني عليه واضحةً في حين جعلا آثار أقدامهما على الجانبين غير واضحة!

علَت وجه بورارو ابتسامة وكاد يتحدّث، ولكنه تراجع عن ذلك واكتفى بهزّ كتفيه في حين أمسك غيرود بمجرفة كان بجوار الحفرة وقال: هذه المجرفة هي أداة الحفر التي استُعملت في حفر القبر. لقد كان المجرمان على قدر كبير من الخبث؛ فقد قتلا رينولد بخنجر من بيته كما قاما بحفر قبره بالمجرفة الخاصة ببستانيّه. حسناً، سأعرف كيف أقبض عليهما. لقد تركا شيئاً، بالتأكيد تركا شيئاً وراءهما، صَغُر أم كَبُر هذا الشيء ولكنهما تركاه.

وفي ذلك الوقت كان بوارو منشغلاً بفحص أنبوب يشبه قطعة معدنية، وهو أنبوب رصاص وجده بجانب المجرفة، فقال لغيرود بهدوء مشوب بالسخرية وهو يشير إلى الأنبوب: هل كان هذا أيضاً

مما يخصّ المجني عليه؟

فقال غيرود وهو يهزّ كتفيه بلامبالاة: أرى أن هذا غير مهمّ، وربما كان هذا الأنبوب ملقىً هنا منذ زمن طويل. بالطبع هو غير ذي أهمية.

فقال بوارو بسخرية: أما أنا فأراه ذا أهمية كبيرة.

وظننت في تلك اللحظة أن بوارو كان فقط يريد أن يثير الغضب في نفس غيرود، وأظن أنه نجح في هذا؛ فقد أشاح عنه ببصره وأولاه ظهره وهو يقول بحنق: لا يمكنني أن أضيع وقتي في مثل هذه التفاهات.

بعد ذلك عاد غيرود ينبطح على الأرض ليفحص الآثار فحصاً دقيقاً، فكان كأنه كلب من كلاب الأمن يتشمّم آثار فريسته. وأثناء ذلك بدا كأن هناك فكرة طارئة تخطر في رأس بوارو، فقد وجدته يجتاز السور الشجري ويدخل حدود أرض الفيلاّ محاولاً فتح الباب الخاص بالكشك الذي كانت توضع فيه أدوات الزراعة. وفي تلك اللحظة هتف غيرود قائلاً: هذا الكوخ مغلق بالمفتاح، ثم إنه مجرّد كشك تُحفَظ فيه أدوات الزراعة الخاصة بالبستاني كما توضع فيه نفايات الملابس، وقد تأكدت من أن المجرفة الذي تمّ بها الحفر لم تأتِ من هذا الكوخ بل من كوخ آخر يقع وراء الفيلاّ.

فقال السيد بكس مدير الشرطة وهو في عجب من أمره: عَجَباً، هذا الرجل رغم أنه لم يبقَ هنا غير نصف ساعة إلاّ أنه عرف كل شيء يخص القضية! إنه أبرع رجل مباحث عرفته في حياتي، بل أنا أراه أبرع رجل مباحث في العالم كله.

وبالرغم من أنني كنت أشعر بالضيق من المفتش غيرود إلاّ

أنني شعرت بالإعجاب الشديد به وبدقة عمله وذكائه الشديد، وقد كان هذا الذكاء والحصافة يشعّان من عينيه. ومما تسبّب في أسفي الشديد أن بوارو لم يُظهِر حتى ذلك الوقت ما يثير الإعجاب، بل كنت أراه يهتمّ بأشياء تافهة لا علاقة لها بالقضية، حتى إنه قال للسيد بكس: هل كان المجني عليه يهوى لعبة الغولف؟

فقلتُ له وأنا لا أزال في دهشتي: كان يُعرف عنه أنه كان يهوى هذه اللعبة بشدّة.

وقال السيد بكس مكملاً قولي: لقد تسبّب حبّه لتلك اللعبة في أنه أقام ملعباً دفع مبالغ كبيرة في تكليفاته، كما ساهم بنفسه في تصميم أرضه.

فقال بوارو بأسف واضح: لم يكن اختيار هذا المكان لدفن الجثة اختياراً جيداً؛ فهنا بعض الأجزاء التي تحيط بها خطوط بيضاء، وهذا يدل على أنه كانت ستجري هنا عملية حفر قريباً مما كان سيؤدّي إلى اكتشاف الجثة حتماً.

فقال غيرود: هذا يثبت بالتأكيد أن المجرمَين غريبان عن المدينة، وأرى أن هذا دليل واضح.

فنظر له بوارو وقال: أيّ شخص على علم بما سيتمّ في أرض الملعب لا يمكن أن يفكر في إخفاء جثة فيه. ثم نظر نظرة ذات مغزىً دفين وهو يقول: إلاّ إذا... إلاّ إذا أراد أن يتمّ ظهور الجثة بعد فترة قصيرة.

ولم يردّ غيرود على قول بوراو الذي أكمل قائلاً: هذا الأمر يدعو إلى الدهشة، كما أنه يستدعي مزيداً من التفكير.

* * *

الفصل السابع

بينما كنّا في طريقنا نحو الفيلاّ ذهب بكس لإخبار المحقق هوتيت بوصول المفتش غيرود، في حين تركْنا غيرود منشغلاً بفحص كل أجزاء الفيلاّ. وقد قال لي بوارو بعد أن أصبحنا وحدنا: هذا الرجل الذي يثير إعجابك يا هيستنغز مجرّد كلب صيد آدمي كما تقولون في إنكلترا.

فقلت له بنفاد صبر: على الأقل هو يؤدّي عملاً ما، وبعمله سوف يجد كل ما يمكن أن يوجَد.

فقال بوارو: لقد وجدت أنا الآخر أنبوباً من الرصاص.

فقلت له آسفاً: بصراحة يا بوارو أنا لا أظن أن لهذا الأنبوب علاقة بالجريمة.

فقال بوارو بلهجة عجيبة: سيظهر هذا عمّا قريب. بالمناسبة، ما رأيك في تلك الساعة التي تقدّم ساعتين كاملتين؟ أنا غير مقتنع أبداً بهذا، كما أنني غير مقتنع بأن الجريمة تمت للانتقام؛ فإن كانت للانتقام فلماذا لم يقتلاه في غرفة نومه؟

فأجبته ببساطة: كانا يريدان معرفة السرّ.

فقال بوارو وهو يهزّ كتفيه: وهل من المعقول أن يكون هذا السرّ دفيناً في أرض ملعب الغولف؟ وهل كانا يعلمان أنهما سيجدان خنجراً في المنزل ليستخدماه في الجريمة؟

ثم فكّر قليلاً وقال: وكيف لم يسمع الخدم صوت هبوطهم فوق الدرَج؟ هل قام أحد بتخديرهم؟ هل كان للمجرمَين شريك ممن يقيمون في الفيلاّ فقام بفتح الباب لهم؟

وعندما وصلنا مدخل الفيلاّ رأينا البستاني العجوز يقوم بتهذيب بعض الأشجار، فسأله بوارو قائلاً: لمن آثار الأقدام تلك التي في حوض الزهور الأيمن؟

فقال البستاني: هذه آثار حذائي يا سيدي.

فقلت لبوارو: أظنك اطمأننت من هذه الناحية الآن يا عزيزي بوارو.

فهزّ بوارو رأسه نفياً وهو يقول: بل أنا ما زلت أرى أنه هناك علاقة وطيدة بين هذه الآثار والجريمة، وأظن أن عزيزنا غيرود سوف يهمل دلالتها.

وفي تلك اللحظة فُتح الباب الخارجي وأقبل منه السيد هوتيت المحقق ومعه السيد بكس مدير الشرطة الذي قال: لقد وجدناك في الوقت المناسب يا سيد بوارو؛ سوف نتّجه الآن إلى السيدة دوبريل لاستجوابها، وأظنها ستجزع عندما تعلم بمقتل السيد رينولد. ربما كان في استجوابها ما يوضّح غموض هذا اللغز؛ الإنسان ربما أفضى إلى حبيبته بما لا يفضي به إلى زوجته.

وبينما كنّا في طريقنا إلى فيلاّ السيدة دوبريل قال لي السيد

بكس: لقد تأكّدنا من أن الخادمة فرانسواز كانت صادقة فيما قالته عن الثراء المفاجئ للسيدة دوبريل؛ فقد وجدنا أنها قامت بإيداع مئتَي ألف فرنك في رصيدها في المصرف في الشهرين الماضيَين.

فهتفت بدهشة عظيمة: يا إلهي! هذا المبلغ يعدل أربعة آلاف جنيه إسترليني.

فقال السيد بكس: هذا صحيح، مما يدلّ على أن القتيل كان يحبّها حبّاً شديداً، ونتمنّى أن يكون قد أفضى لها بسرّه.

عند ذلك كنا قد وصلنا إلى الفيلاّ فتوقّفنا أمامها، وإذا بها الفيلاّ التي رأيت عند بابها أثناء مجيئي مع بوارو تلك الفتاة الجميلة. وكان مكتوباً على باب الفيلاّ «فيلاّ مرغريت».

وقال السيد هوتيت المحقق وهو يضغط جرس الباب: تقيم السيدة دوبريل هنا منذ زمن طويل، وطوال هذه الفترة كانت حياتها هادئة تمام الهدوء؛ فلا أصدقاء لها ولا أقرباء، كما أنها لم تتحدّث يوماً عن ماضيها أو حياتها الزوجية السابقة، حتى إن أحدا لا يعرف شيئاً عن زوجها السابق هل هو ميّت أم حيّ؟ بالتأكيد في ماضيها شيء غامض.

فقلت له متسائلاً: وماذا عن ابنتها؟

فقال بإعجاب كبير: تلك الفتاة رائعة الجمال! إنها فتاة هادئة جميلة، ولكنني أظن أن أيّ رجل يتقدّم لزواجها لا بدّ أن يسأل عن ماضي أمّها.

فقال بوارو بدهشة واستنكار: وما ذنبها هي؟

فقال هوتيت: أتقبل أنت مثلاً الزواج بها دون معرفة ماضي أمّها؟

وفي تلك اللحظة رأينا الفتاة الجميلة تفتح لنا الباب، ولم يكد نظرها يقع عليّ حتى غارت الدماء في وجهها وبدا عليها الخوف الشديد، ولكن المحقق هوتيت خلع قبعته ورفعها تحية لها ثم قال: أبدي أسفي يا آنسة دوبريل على إزعاجنا إياكم، ولكن هناك ضرورة تحتّم علينا مقابلة والدتك للحظات قليلة.

بقيَت الفتاة في مكانها وقتاً طويلاً، ثم أخيراً تمالكت أعصابها وقالت: تفضّلا، تفضّلا بالدخول ريثما أخبر والدتي بقدومكما.

وبعد قليل أقبلت تلك السيدة الغامضة دوبريل. كانت في نحو الأربعين من عمرها، طويلة القامة كابنتها وتكاد تصل إلى نفس مستوى جمال ابنتها مع مزيد من النضوج. قالت لنا بصوت كأنه الموسيقى: هل تريدون مقابلتي أيها السادة؟

وهنا ابتلع المحقق ريقه ثم قال بصوت متحشرج: نعم، نعم يا سيدتي. نحن نحقق في مقتل السيد رينولد. أظنك سمعت بالحادث.

فأومأت السيدة دوبريل برأسها وقد بدا عليها الحزن ولم تُجِب، فعاد المحقق يقول: جئنا لنسألك إن كنتِ تعلمين ما يمكن أن يفيدنا في كشف غموض هذه الجريمة.

فقالت المرأة بدهشة حقيقية: أنا؟! ومن أين لي أن أعرف؟

- لدينا من المعلومات ما يؤكّد أنك كنت تعتادين زيارة المجني عليه في بعض الأمسيات في فيلّته، فهل هذا صحيح؟

وهنا شحب وجه السيدة دوبريل ولكنها قالت بحدّة: ليس من حق أحد توجيه مثل هذه الأسئلة لي.

فقال لها: ولكننا نحقق في حادث قتل يا سيدتي.

فقالت بعصبية: وما علاقتي أنا بهذا الحادث؟

- نحن نعرف أنه كانت هناك علاقة قوية بينك وبين المجني عليه، فهل يمكن أن يكون قد أخبرك بشيء ما أو بسرّ معيّن.

- لا يا سيدي، لم يفعل.

- هل أخبرك بشيء عن حياته في سنتياغو أو عن أعداء له فيها؟

- لا، لم يفعل.

فقال له وهو يهزّ كتفيه: أنتِ إذن لن تستطيعي مساعدتنا بشيء.

فقالت السيدة دوبريل بدهشة لم أدرِ إن كان حقيقية أم مصطنعة: لماذا أنا؟! ألم تخبركم زوجته بما تعرفه عما تسألون عنه؟

فقال المحقق بنفاد حيلة: بلى، لقد أخبرتنا بكل ما تعرفه.

فهزّت المرأة كتفيها دون أن تتكلّم، فلم يسَعْنا إلاّ الانصراف.

وفي أثناء عودتنا سأل السيد هوتيت: هل هنا فندق قريب أستطيع أن أقضي فيه ليلتي؟

فأجابه السيد بكس: على بُعد نصف ميل من هذا الطريق

يوجد فندق اسمه دي بان، وهو مكان مناسب قريب من مكان التحقيق. بالطبع سوف نراك غداً صباحاً، أليس كذلك؟

- بلى بالتأكيد، طابت ليلتكم.

وبعد أن افترقنا مضيت مع بوارو إلى ميرلنفيل، وقبل ابتعادنا كثيراً عن فيلاّ مرغريت وجدنا الصبية الفائقة الجمال مارثا دوبريل تأتي نحونا وهي تلهث، ثم قالت بلهجة مضطربة لبوارو: سيدي، أرجو ألاّ يخبر أحدكما أمّي بأنني تحدّثت إليكما. هل أرسل لك السيد رينولد بالفعل حتى تأتي لحراسته؟

فأجاب بوارو بدهشة: نعم يا آنستي، لقد حدث هذا حقاً. ولكن كيف عرفت؟

فقالت الفتاة وهي لا تزال تلهث: فرانسواز الخادمة أخبرت خادمتنا أميلا بهذا.

فقال بوارو بدهشة: هذا أمر عجيب! كيف عرفت فرانسواز بهذا؟ المهمّ، ما الذي تريدين إخبارنا به يا آنسة؟

فبدا التردّد على ملامحها فترة، ولكنها في النهاية قالت بصوت منخفض وكأنها تهمس: هل تشتبهون في شخص ما؟

فنظر بوارو إلى وجهها نظرة فاحصة ثم أجابها: الاتهام موجّه نحو الجميع الآن.

فقالت الفتاة باضطراب واضح: ولكن هل هناك شخص معيّن تزيد حوله الشبهات؟

وازداد في تلك اللحظة الخوف في عينيها، حتى إنني تذكرت

قول بوارو واصفاً إيّاها: «لقد رأيتها فتاة صغيرة خائفة العينين». كانت تكمل كلامها في تلك اللحظة قائلة: كان السيد رينولد رؤوفاً بي حانياً عليّ دائماً، وأنا أهتمّ بأن أعرف من قتله.

فقال بوارو وهو ينظر إلى عينيها: الاتهام يدور حالياً حول شخصَين.

فقالت الفتاة وقد ازداد الخوف في ملامحها: شخصَين؟

كانت الدهشة واضحة في صوتها فقال بوارو: نعم يا آنستي، مجهولَين من سنتياغو بجمهورية تشيلي و... آه، أرأيت تأثير جمالك عليّ؟ لولا جمالك يا فتاتي لما أخبرتك بهذه المعلومات.

فضحكت الفتاة بسعادة ثم قالت وهي تستدير لتعود إلى منزلها: شكراً جزيلاً يا سيدي. عليّ العودة قبل أن تكتشف أمّي أنني لست في المنزل.

وبعد أن انصرفت أطلقتُ تنهيدة عميقة وأنا أقول: يا إلهي، ما أجملها!

فقال بوارو بصرامة: دعها وشأنها يا هيستنغز، ليست هذه الفتاة بفتاة مناسبة لك.

فقلت بدهشة وحنق: وماذا ينقصني؟!

فقال بوارو بلهجة عجيبة: لا شيء يعيبك على الإطلاق يا هيستنغز، ولكن لا تغرّنّك الوجوه الجميلة.

فقلت له بلهجة حالمة: ليس هذا مجرّد وجه جميل، بل هو وجه ملاك!

فقال بوارو بلهجة شبه ساخرة: لبعض المجرمين أوجه ملائكية يا عزيزي.

فقلت له هاتفاً: أتعني أنك تشتبه في هذه الفتاة البريئة الصغيرة؟!

فقال بوارو بهدوء مستفزّ: لا تسرف في انفعالك يا صديقي؛ فأنا لم أُقل إنني أشتبه فيها، ولكنني لاحظت أن الجزع يبدو عليها بشكل زائد عن الطبيعي.

فقلت له مفكّراً: ربما كانت تشعر بالفزع من أجل أمّها.

فقال بوارو وهو يهزّ كتفيه: أمّها امرأة قوية وتعرف كيف تحمي نفسها دون حاجة لخوف ابنتها عليها.

ثم صمت هنيهة قبل أن يقول: ليس وجه الأم غريباً عليّ وأظن أنني رأيتها من قبل، ولكنني لا أتذكر المكان ولا الزمان.

ثم عاد مرة أخرى إلى تفكيره العميق ثم قال: أظنني رأيتها أو رأيت صورتها منذ سنين طوال عندما كنت أعمل في إدارة المباحث البلجيكية. نعم، أنا واثق من ذلك، وقد كان هذا أثناء التحقيق في قضية خطيرة.

فقلت بدهشة: في جريمة؟!

فقال بوارو وهو يُعمِل ذاكرته: أظن ذلك.

* * *

الفصل الثامن

عندما عدنا إلى الفيلاّ في صباح اليوم التالي كانت الخادمة ليونيه تهبط من الطابق الأعلى، وكانت تبدو وكأنها ترغب في الحديث فسألها بوارو قائلا: كيف حال السيدة رينولد الآن؟

فقالت الفتاة وهي تهزّ رأسها: في حالة سيئة جداً يا سيدي. إنها مسكينة جداً، حزنها يكاد يمزّق قلبي، ولو أنني كنت مكانها لما شعرت بكل هذا الحزن على رجل له مثل هذه العلاقات مع نساء أخريات.

فقال بوارو: بالتأكيد يا آنسة، ولكن الحب يغفر أحياناً كل شيء. لا شك أن النزاع قد تمّ بينهما في الفترة الأخيرة، أليس كذلك؟

فقالت الخادمة: ليس الأمر كذلك، أنا لم أسمع السيدة رينولد تنطق بكلمة عتاب واحدة أو تفقد تحكّمها في نفسها. إنها في غاية الرقة يا سيدي، على العكس من السيد رينولد.

- ألم يكن السيد رينولد وادعاً كالملاك؟

فقالت الخادمة بحنق: إطلاقاً يا سيدي، لقد كان كالثور الهائج يوم المشاجرة بينه وبين ابنه جاك.

فقال بوارو: متى كانت هذه المشاجرة؟

فقالت الخادمة كأنها كانت تتوقع السؤال: قبل سفر سيدي جاك إلى باريس مباشرة يا سيدي. كان مسرعاً وحمل حقيبته التي كانت في البهو، وقد رأيت وجهه الذي كان شاحباً بسبب غضبه، وقد اضطُر لركوب سيارة أجرة لأن سيارة السيد رينولد كانت تحت الإصلاح.

وبدا لي أن بواروا يستمتع بهذا الحديث مع الخادمة، ثم قال: ماذا كان سبب تلك المشاجرة؟

فقالت الخادمة وهي بادية الأسف: للأسف لم أعرف هذا الأمر يا سيدي؛ لقد كانت أصواتهما عالية وكانا يتحدّثان بسرعة مما جعلني لا أفهم شيئاً، وقد ظل السيد رينولد متجهّم الوجه طوال ذلك اليوم.

وسكتت هنيهة ثم عادت تقول: لا بدّ أن أسرع لعملي قبل أن تسلّط تلك العجوز لسانها عليّ.

فقال بوارو بسرعة: انتظري لحظة يا آنسة. أين السيد هوتيت المحقق الآن؟

فقالت الخادمة: رأيته مع مدير الشرطة في المرأب يقومان بفحص السيارة ليعرفا ما إذا كانت قد استُعملت ليلة الحادث أم لم يتمّ استعمالها.

حين انصرفت الخادمة سألت بوارو: هل ستتّجه إليهما؟

فأجابني: بل سأنتظر في غرفة الاستقبال ريثما يعودان؛ فهواء غرفة الاستقبال منعش.

فقلت له متردّداً: هل تسمح لي أن...

فقال بوارو: نعم، تريد القيام ببعض الأبحاث والتحرّيات بنفسك. اذهب يا صديقي واستمتع بوقتك كما يحلو لك.

فقلت له موضّحاً: أريد فقط إلقاء نظرة على المفتش غيرود لأعلم ما يفعله الآن.

فقال بوارو بسخرية: أتقصد كلب الصيد الآدمي؟ فلتفعل ما تشاء يا صديقي.

غادرت الفيلاّ وأنا أنوي الذهاب إلى مسرح الجريمة، ولكن بدلاً من اتخاذ الطريق العادي قمت باختصار بعض المسافة مخترقاً حاجز الشجيرات الذي يفصل بين حدود الفيلاّ وملعب الغولف، ولكنني فوجئت عند اختراقي حاجز الشجيرات بشابة تقف وظهرها لحاجز الشجيرات، فلما سمعت صوت قدميّ التفتت نحوي، وهنا هتفنا في وقت واحد وبدهشة بالغة: أنت؟!

لقد كانت صديقة القطار سندريلاّ. وتمالكت الفتاة نفسها ثم قالت: ماذا تفعل هنا؟

فقلت لها بدهشة: وأنت؟ ماذا تفعلين؟

فقالت: أول مرة رأيتك فيها كنتَ في الطريق إلى إنكلترا، فما الذي جعلك تأتي إلى هنا؟

فقلت لها: وأنا حين رأيتك أول مرة كنتِ تبحثين عن أختك. بالمناسبة، كيف حال أختك؟

فقالت بامتنان: أشكرك على سؤالك. أختي بخير.

فقلت لها: ألن تخبريني على الأقل عن سبب وجودك هنا؟

فقالت: ألا تعلم أن بعض الناس يزورون هذه المدينة للراحة

والاستجمام؟ ثم قالت وهي تشير إليّ بالصمت: كُفَّ عن الكلام الآن. أنت لم تخبرني بسبب مجيئك إلى هنا.

- هل تذكرين حديثي عن ضابط المباحث السابق بوارو زميلي في المسكن؟

- نعم.

- هل سمعتِ عن الجريمة التي وقعت في فيلاّ جنيفييف؟

فحدقت إلى وجهي وأنفاسها تلهث وهي تقول: أتعني أنك مشترك في التحقيق في هذه الجريمة؟!

أومأت برأسي إيجاباً فقالت مبتسمة: لماذا إذن لا تصحبني في جولة لأرى بنفسي تفصيلات هذه الجريمة الفظيعة؟ هذه فرصة لا يمكن أن تتكرّر... هيا.

فقلت لها بدهشة: ماذا تقصدين؟

فقالت كأنها طفلة صغيرة: ألا تذكر أنني أخبرتك عن حبّي للقصص البوليسية؟ أنا لا أجد شيئاً أكثر متعة من رؤية إحدى الجرائم على الطبيعة.

فقلت لها بأسف: ولكن من غير المسموح أن يرى أيّ شخص شيئاً من تفصيلات هذه الجريمة.

فقالت وقد ظهر الإحباط على وجهها: ألستما أنت وصاحبك من المسؤولين هنا؟

كنت أكره أن يخيب أملها معي، ولهذا أجبتها قائلاً: نعم، بالطبع، ولكن ماذا تريدين أن تشاهدي مثلاً؟

فقالت وهي تشير بيديها كأنها تمثّل فوق خشبة المسرح: كل شيء يمكن رؤيته في مكان الجريمة؛ سلاحها، الجثة، البصمات... وكل شيء. هذه الفرصة يصعب أن تتاح مرّتين في العمر.

ثم تأبّطت ذراعي وقالت مبتسمة في عينيّ: هيا يا عزيزي، هيا يا طيّب القلب.

فلم أملك من نفسي عندئذ إلاّ أن أنفّذ لها رغبتها، فمضيت بها في البداية نحو مكان وقوع الجريمة، وهناك حيّانا الحارس الذي كان قد رآني في اليوم السابق مع رجال الشرطة وهيئة التحقيق. وبعد أن قصصت عليها تفصيلات الحادث ذهبنا معاً إلى الفيلاّ، وقد كنت حريصاً على الذهاب من الباب الخلفي حتى لا يرانا أحد. وعند وصولنا إلى الكوخ الذي كانت الجثة قد وُضعت فيه تذكّرت أن السيد بكس كان قد أعطى مفتاحه للشرطي مارشود القائم على حراسة مدخل الفيلاّ، فتركت سندريلاّ عند الكوخ ومضيت إلى مارشود الذي قال لي حين رآني: إن كنتَ تريد مقابلة المحقق فهو في غرفة المكتب لإعادة سؤال فرانسواز.

فقلت له ببساطة: بل أنا أريد مفتاح الكوخ لأمر هام، هذا إن لم يكن لديك مانع بالطبع.

فأخرجه من جيبه فوراً وأعطانيه وهو يقول: بالتأكيد يا سيدي؛ لقد أمرني المحقق السيد هوتيت بتقديم كل ما تطلبانه أنت والسيد بوارو من تسهيلات، وكل ما أرجوه أن تعيد المفتاح إليّ بعد إنهاء مهمّتك.

فشكرته وقد أحسست بأهمّيتي في القضية، ثم ذهبت إلى سندريلاّ التي هتفت حين رأت معي المفتاح: هل حصلت على

المفتاح؟!

فأجبتها: بالطبع يا عزيزتي، ولكن عليك أن تعلمي أن هذا مخالف للتعليمات تماماً.

فقالت وهي تزداد لهفة لمشاهدة ما بداخل الكوخ: أنا لن أنسى هذا الصنيع أبداً، هيا قبل أن يرانا أحد.

فقلت لها وأنا مشفِق عليها من منظر الجثة: لقد رأيتِ كل شيء تقريباً، فهل أنت مُصِرّة على رؤية الجثة؟ هذا منظر لا يحبّ أحد أن يراه.

قالت: لا تخَف عليّ يا عزيزي؛ فأعصابي حديدية.

ففتحتُ باب الكوخ ودخلنا إليه، ثم قلت وأنا أنزع الغطاء عن وجه القتيل: لقد طُعن من الخلف، هل ترَين هذا؟

فقالت بفزع شديد: بماذا طُعن؟

فأشرت بيدي نحو الخنجر الصغير الذي كان موضوعاً في الإناء الزجاجي وقلت لها: بهذا الخنجر.

وفجأة وجدتها تهوي إلى الأرض في إغماءة مفاجئة وهي تقول بصوت واهن: أريد ماء! ماء، بسرعة.

فتركتها وأسرعت إلى داخل الفيلاّ، ومن حسن الحظ أنني لم ألتقِ بأحد في طريقي، فأحضرت زجاجة ماء وعدت بها إلى الكوخ بسرعة ثم وضعت بضع قطرات منها في فم الفتاة، فما لبثت أن فتحت عينيها وقالت: أخرجني من هنا بسرعة.

فأسندتها إلى ذراعي وخرجت بها إلى الهواء الطلق بعد أن

أغلقت الباب وراءنا، فتنفّسَت بعمق وقالت: أشعر أنني أحسن حالاً، شكراً لك.

فقلت لها وقد تأكّدت أن أعصابها لا تمتّ للحديد بصلة كما كانت تزعم: لقد حاولت منعك يا عزيزتي، ولكنك أصررتِ.

فقالت: بالطبع يا عزيزي، أشكرك على كل شيء. ثم قالت بصوت رقيق: أنا مضطرة للذهاب الآن.

فقلت لها باستنكار: كيف تنصرفين وصحّتك بهذه الحال؟ هذا غير ممكن.

فقالت بابتسامة رقيقة: لقد أصبحت بخير يا عزيزي، وعليّ الإسراع إلى المدينة لأني تأخّرت كثيراً.

وحين همّت بالانصراف قلت لها: تمهّلي، أنت لم تذكري لي عنوانك.

فقالت: أنا أعيش في فندق دي فير، وأرجو أن تحضر لتزورني في الغد.

فقلت: سأفعل، بالتأكيد سأفعل.

وكنا في تلك اللحظة قد ابتعدنا عن الفيلاّ كثيراً وصرنا في الطريق العام، وبعد أن ذهبَت عُدْتُ مسرعاً لأني كنت قد تركت المفتاح في باب الكوخ، وحين وجدته لا يزال في مكانه تنهّدت بارتياح وأعدته إلى الشرطي مارشود دون أن يلمحني أحد.

* * *

الفصل التاسع

دخلت غرفة الاستقبال بهدوء حيث كان السيد هوتيت المحقق يقوم باستجواب البستاني الذي اعترف له بأن القفازَين اللذين وُجدا في الكوخ يخصّانه وأنه يستعملهما أحياناً عند العمل في بعض النباتات الشوكية، وأنه ليس لهما مكان ثابت يحفظهما فيه. أما المجرفة فكان الرجل يضعها عادةً في الكوخ الذي يُغلَق بالمفتاح الذي يبقى في الباب لأنه لا شيء في داخله يُخشى عليه من السرقة.

وبعد انصراف البستاني قال السيد هوتيت وهو يهزّ رأسه: لم نعرف من هذا البستاني إلاّ القليل، وأظن أنه علينا الانتظار حتى يصل إلينا الردّ من سنتياغو.

وفي تلك اللحظة أقبل المفتش غيرود قائلاً: لا يا سيدي المحقق؛ أنا هنا طوع أمرك.

وكانت لهجته ساخرة عند حديثه مع السيد هوتيت، مما كان يدل على أن العلاقة بين الرجلين لم تكن كما ينبغي. وكان من الطبيعي أن يردّ عليه السيد هوتيت بسخرية مماثلة قائلاً: هل عرفت الجاني أيها المفتش غيرود؟ أظنك عرفته وعرفت أين هو الآن، أليس كذلك؟

فقال غيرود بلهجة حانقة: لقد عرفت على الأقل من أين جاء

هو ومن كان معه.

ثم مدّ يده في جيبه وأخرج منه شيئين صغيرَين وضعهما أمامنا على المنضدة، فتوجّهت أنظارنا جميعاً إليهما فوجدناهما عبارة عن عود غير مستعمَل من الثقاب وعُقب لفافة مستعملة. وقال غيرود موجّهاً كلامه لبوارو بلهجةِ مَن أحرز نصراً على غريمه: ماذا تستنتج من هذين الشيئين يا سيد بوارو؟

فهز بوارو كتفيه وهو يقول: لا شيء أيها المفتش، لا شيء.

فقال غيرود بلهجة مسرحية: أنت تقول هذا لأنك لم تفحص هذه الأشياء بعقلية البحث الجنائي الحديث. عود الثقاب هذا ليس من نوع عادي، في هذه المنطقة على الأقل، بل هو من نوع يشتهر وجوده في أمريكا الجنوبية، ومن حسن الحظ أنه لم يُستعمَل؛ فلولا ذلك لما عرفت مكان صنعه. ومن الواضح أن أحد الجانيَين أسقط عوداً من الثقاب من علبته حين فتح علبة الثقاب لإشعال سيجارته.

وقال بوارو بلهجة ساخرة: وأين العود الآخر؟

فقال غيرود بدهشة: أيّ عود؟

فقال بوارو وصوته يزداد سخرية: ذلك الذي أشعل به القاتل سيجارته، ألم تعثر عليه مستعمَلاً؟

- لم أفعل.

فقال بوارو والسخرية تتفجر من نبراته الهادئة: لم تكن إذن دقيقاً في البحث بما يكفي.

فقال غيرود بحنق وغضب: أنا لم أكن دقيقاً؟!

ثم نظر في عينَي بوارو فلمح فيهما التهكّم والسخرية جليَّين فقال: أعلم أنك تسخر منّي يا سيد بوارو، ولكنّ هناك شيئاً آخر. هل تعلم أن عُقب السيجارة الذي وجدته هو من نوع معروف في أمريكا الجنوبية أيضاً؟

فقال السيد بكس مدير الشرطة: ربما كان عود الثقاب وعقب السيجارة يخصّان السيد رينولد نفسه، فلا تنسَ أنه جاء أساساً من أمريكا الجنوبية منذ عامَين فقط، وهذا يعني أنه من الممكن أن يكون هذا النوع من السجائر ضمن ما يحتفظ به مما أحضره معه من هناك.

فقال بوارو: أليس من العجيب أن يأتي قاتلان من أمريكا الجنوبية دون أن يكون معهما قفّاز أو أداة للقتل أو أداة للحفر، ثم يجدا كل هذا جاهزاً أمامهما ببساطة؟

فقال السيد بكس: معنى هذا أن للقاتلَين شريكاً في الفيلاّ.

فأكمل بوارو قول مدير الشرطة: وهذا يعني أيضاً أن شريكهما هذا هو الذي فتح لهما باب الفيلاّ.

فقال غيرود: هذا محتمَل، ومن المحتمل أيضاً أنه كان معهما مفتاح الفيلاّ. ربما، وربما كان مع ذلك الشريك مفتاح، وربما كان السيد جاك قد فقد المفتاح الخاص به، وربما كان البستاني يحتفظ بمفتاح الفيلاّ منذ كان يعمل لدى أصحابها القدامى، بل ربما كانت السيدة دوبريل تحتفظ معها بمفتاح خاص لها.

فقال السيد هوتيت بدهشة: أسمعت حتى بهذه العلاقة؟!

فقال غيرود بثقة: أنا أسمع كل الأشياء، ولكن بطريقتي الخاصة يا سيدي.

فمدّ السيد هوتيت يده في جيبه وهو يقول بلهجة المنتصر: يمكنني المراهنة على أنك لم تسمع بهذا.

ثم أخرج من جيبه قطعة الشيك التي كُتب عليها اسم دوفين والرسالة الموقَّعة باسم بيللا، فقال المفتش غيرود بعد أن قام بفحصهما: لا يغيّر هذا شيئاً من نظريتي.

فسأله المحقق: وما نظريتك يا سيد غيرود؟

فقال غيرود بأَنَفة: بل أفضّل الاحتفاظ بها لنفسي في الوقت الحالي؛ فأنا ما زلت في بداية التحرّيات.

فقال له بوارو: أريد أن تخبرنا بشيء واحد يا سيد غيرود. ما ذكرتَه يفسّر طريقة فتح الباب ولكنه لا يفسّر سبب ترك الباب مفتوحاً حتى الصباح، ألا ترى أنه كان من الأفضل للقاتلَين إغلاق الباب بعد خروجهما مع القتيل؟

فقال غيرود وهو يمطّ شفتيه: أظنهما نسيا إغلاقه لا أكثر.

ففوجئت ببوارو يقول بثقة: لا أظن ما تقوله صحيحاً يا سيد غيرود؛ لقد تُرك الباب مفتوحاً عمداً أو للضرورة، وأيّ تفسير غير هذا هو تفسير خطأ.

فعبث غيرود بشاربه وهو يقول لبوارو باستخفاف: أنت تعارض نظريتي إذن؟ حسناً، ما رأيك في الجريمة أيها العبقري؟

فقال بوارو بهدوء: ألا تذكّرك هذه الجريمة بأخرى مماثلة لها؟

فقال غيرود بدهشة: جريمة أخرى مماثلة؟! أين؟ ومتى؟

فشرد بوارو ببصره وهو يقول: أنا لا أذكر الآن، ولكني على يقين من أنني سأتذكّر كل تفصيلاتها بعد قليل. أنت تعرف أن لكل مجرم وسائله الخاصة وأسلوبه الخاص، وهو يكرّر هذه الوسائل دائماً ما دام لم يقع في أيدي الشرطة؛ فهو يَعتبر أن هذه الوسائل هي الأفضل والأضمن نجاحاً.

فقال غيرود بسخرية: يا لها من محاضرة عظيمة يا سيد بوارو! ولكن ما الهدف منها؟

فقال بوارو وهو لا يزال على هدوئه: الهدف منها أن تعلم أنه إذا وقعت جريمتان بنفس الأسلوب فوراءهما عقل واحد يخطط، وإلى جانب هذا أحبّ أن أذكّرك بأمر الساعة التي قدّمت ساعتَين كاملتَين ووُجدت مكسورة في غرفة النوم.

فقال غيرود وهو لا يزال على سخريته: صدّقني يا عزيزي، الساعات تقدّم وتؤخّر أحياناً.

فقال بوارو: ألا ترى أنه من النادر أن تقدّم ساعة بمقدار ساعتَين في مدّة بسيطة كهذه؟

فاكتفى غيرود بهزّ كتفيه في نفس اللحظة التي دخل فيها الشرطي مارشود ثم قال للمحقق السيد هوتيت: وصل السيد ستونر السكرتير الخاص للسيد رينولد من إنكلترا.

* * *

الفصل العاشر

لفَت السيد ستونر أنظار الجميع حين دخل الغرفة؛ فقد كان طويلاً أنيقاً رياضي الجسم ملوّح الوجه آسر الشخصية، وكان من الواضح أن السيد غابرييل ستونر من تلك الشخصيات التي طافت العالم وخاضت الكثير من معارك الحياة.

وحيّانا جميعاً ثم قال: يا له من حادث مروّع أيها السادة! كيف حال السيدة رينولد؟ بالتأكيد كانت الصدمة شديدة الوقع عليها.

فقال له السيد هوتيت بعد أن عرّفه بالمدعوّين جميعاً: أجل يا سيد ستونر، لقد كانت الصدمة شديدة حقاً.

وبعد أن عرف ستونر سبب حضور بوارو نظر إليه وقال له: إذن فقد أرسل إليك السيد رينولد طلباً للحماية من خطر داهم!

فقال بوارو: ألم تكن تعلم بهذا الأمر؟

فقال ستونر: لم أكن أعلم بهذا، ولكني لا أدهش لهذا التصرّف.

- وما السبب؟

- كان السيد رينولد شديد الاضطراب في الفترة الأخيرة،

ولكنه لم يخبرني بشيء مما كان يزعجه. نعم، كان واضح القلق والاضطراب.

فسأله السيد هوتيت: منذ متى تعمل سكرتيراً لديه يا سيد ستونر؟

فقال ستونر: منذ نحو عامَين، أي بمجرّد وصوله من أمريكا الجنوبية، وكان ذلك عن طريق توسُّط أحد الأصدقاء لديه لأعمل عنده. لقد كان مخدوماً ممتازاً طيّب القلب.

فسأله هوتيت: ألم يحدّثك عن حياته السابقة في أمريكا الجنوبية؟

- بلى، كثيراً.

- هل أخبرك يوماً أنه زار سنتياغو؟

- نعم، لقد كان يزورها كثيراً.

- ألم يخبرك أنه قام هناك بشيء أثار حقد البعض عليه؟

- مطلقاً.

- ألم يخبرك يوماً عن سرّ حدث له هناك؟

فقال الرجل وهو يحاول التذكّر: لا أذكر هذا، ولكنه لم يحدّثني قط عن أيام طفولته وشبابه ولا عن أيّ شيء خاص بالفترة التي كانت تسبق انتقاله إلى أمريكا الجنوبية.

- هل سمعته يذكر يوماً اسم دوفين أو قرأت هذا الاسم على أوراقه؟

- أظنني سمعت هذا الاسم؛ فهو يبدو مألوفاً لديّ.

- أكنت تعرف أن للسيد رينولد صديقة اسمها بيللا دوفين؟

- نعم، أظنني سمعت هذا الاسم، ولكنني لا أذكر متى ولا أين سمعته.

فقال المحقق وهو يحثّ الرجل على التذكّر: رجاء يا سيد ستونر، الأمر على درجة شديدة من الخطورة بحيث لا يمكنك أن تحتفظ في نفسك بما يمكن أن يهدينا إلى القاتل.

فقال الرجل وقد بدا عليه الضيق: ما مقصدك يا سيدي المحقق؟

فأطلق المحقق زفرة عميقة وهو يقول: أقصد أنك ربما تخشى أن تزيد آلام السيدة رينولد إذا أخبرتنا مثلاً بوجود علاقة خاصة بين زوجها القتيل والمدعوّة بيللا دوفين.

فقال ستونر بحماس شديد: مطلقاً يا سيدي؛ لقد كان السيد رينولد يحبّ زوجته حبّاً جمّاً ولا يفكّر في خيانتها أبداً.

فقال المحقق بفراغ صبر: لدينا دليل حاسم على وجود علاقة غرامية بينه وبين امرأة تُدْعى بيللا، وهذا الدليل عبارة عن رسالة عاطفية وجدناها في جيب معطفه، هذا بخلاف أنه كان يستقبل السيدة دوبريل في مكتبه مساء ليلة الحادث.

- هذا غير ممكن يا سيدي. أؤكّد لك أنه كانت هناك أسباب أخرى غير الحبّ هي التي ربطته ببعض النساء.

- ما هذه الأسباب إذن؟

فقال ستونر بدهشة: ماذا جعلكم تعتقدون أن هناك علاقة ما

بين السيد رينولد والسيدة دوبريل؟

- لقد كانت تزوره كثيراً في المساء، ورصيدها في المصرف ارتفع إلى أربعة آلاف جنيه إنكليزي في أسبوعَين فقط. ألا ترى هذا سبباً كافياً للاعتقاد بأنه كانت هناك علاقة عاطفية بينهما؟

- صحيح أن رصيدها زاد بهذه النسبة في الفترة الأخيرة، وقد كنت أحوّل لها هذه الأموال بناء على أوامر السيد رينولد، ولكن لم يكن ذلك بسبب علاقة عاطفية بينهما.

فقال المحقق: فماذا إذن؟

فقال ستونر: لقد كان هذا نوعاً من الابتزاز.

فقال هوتيت وقد بلغت دهشته مبلغاً عظيماً: ماذا تقول؟ ابتزاز؟!

فقال ستونر يكمل كلامه: لقد كانت السيدة دوبريل تعرف عنه شيئاً ما وتقوم باستغلال هذه المعرفة بشكل سيئ. ولو كان السيد رينولد قد عاش سنة أخرى لكانت السيدة دوبريل قد ظفرت بمليون جنيه من ورائه.

فقال هوتيت: هذا أمر محتمل.

فقال ستونر بلهجة تأكيد: بل أنا أرى أن هذا أمر مؤكَّد، هذا رأيي على الأقل.

- فليكن. لكنّ هناك أمراً آخر، هل تعرف شيئاً يخصّ الوصية التي تركها السيد رينولد قبل مقتله؟

فأجاب ستونر: بالطبع؛ فقد حملتها بنفسي إلى المحامين

للاحتفاظ بها بين سجلاّتهم، وتلك الوصية قسّم فيها السيد رينولد ثروته نصفَين، أحدهما لزوجته والآخر لابنه جاك.

فسأله هوتيت: ومتى تمّت كتابة هذه الوصية؟

- منذ نحو عام ونصف العام.

فقال هوتيت وهو يتفرّس في ملامح ستونر: هل يثير فيك الدهشة أن تعلم باستبداله بتلك الوصية وصية أخرى منذ أسبوعَين تقريباً وفي الوصية الجديدة أوصى بترك كل ثروته لزوجته؟

فقال ستونر وقد بدا شيء من الدهشة على ملامحه: لا علم لي بهذا! ولكن في هذه الوصية الجديدة ظلم بيّن للابن. لقد كانت أمّه تحبّه حبّاً شديداً، ولكن هذا التصرف ربما جعله يظن أن أباه لم يكن يوليه ثقته. وأياً كان الأمر فإن هذا يؤكّد قولي بأن السيد رينولد كان يحبّ زوجته حبّاً شديداً.

- نعم، بالطبع يا سيد ستونر، وقد أرسلنا ببرقية إلى سنتياغو أعتقد أن الردّ عليها سيوضّح لنا الكثير والكثير من جوانب القضية.

وفجأة قال بوارو للسيد ستونر: منذ متى يعمل سائق سيارة السيد رينولد؟

فقال ستونر: منذ نحو العام.

- وهل كان هو سائقه الخاص في أمريكا الجنوبية؟

فقال ستونر: لا، بل كان يعمل قبل ذلك لدى أسرة أخرى في غلوشستر شاير.

- هل تشهد بأنه بعيد عن الشبهات؟

- بالتأكيد يا سيدي.

وفي تلك اللحظة دخلت علينا السيدة رينولد فجأة وهي شاحبة الوجه، فأسرع لها ستونر بمقعد وساعدها على القعود عليه وهو يواسيها بعبارات قصيرة، بينما قال لها المحقق السيد هوتيت: كِدْتُ أصعد إليك يا سيدة رينولد لسؤالك عن مرحلتَي الشباب والطفولة الخاصّتَين بالسيد رينولد.

فقالت السيدة رينولد: لم يعتَد رينولد التحدّث عن هاتين المرحلتين، وكان من الواضح أنهما مرحلتان مؤلمتان بالنسبة له.

فقال هوتيت: هل كانت في حياته أسرار يخفيها؟

فقالت وهي تهزّ رأسها: لا أظن هذا.

وهنا قال هوتيت بلهجة حرِجة: أتمنّى ألاّ يغضبك سؤالي يا سيدة رينولد. أكنتِ على علم بالعلاقة التي كان بين السيد رينولد والسيدة دوبريل؟

فأخفت السيدة رينولد وجهها بين يديها وشهقت بالبكاء برهة ثم قالت: نعم يا سيدي، كنت أعلم بعلاقة الحب التي كانت بينهما.

ولم أرَ في حياتي نظرة عجب ودهشة مثل تلك التي أطلّت من عينَي ستونر وهو ينظر إلى السيدة رينولد.

* * *

الفصل الحادي عشر

فجأة انفتح الباب بعنف ودخل منه شاب طويل القامة ظننته السيد رينولد وقد بُعث حيّاً، ولكنني أدركت على الفور أنه ليس هو لأنه لم يكن أشيب الشعر، بل كان شاباً قوياً في مقتبل العمر. لم يحفل بوجود أحد في المكان إلاّ السيدة رينولد، فتقدّم نحوها وانحنى بإشفاق وقال: أمّاه!

فهتفت الأمّ بحنان وهي تحتضن ابنها بين ذراعَيها: جاك، ولدي الحبيب! ماذا جاء بك؟! أليس من المفروض أنك الآن على السفينة أنزورا التي أبحرت إلى شيربورغ منذ يومَين؟

وبدت فجأة وكأنها استعادت إحساسها بالموجودين في المكان فنظرت لنا وأشارت نحو الشاب وهي تقول: هذا ابني جاك.

فقال السيد هوتيت بعد تحية جاك: أنت لم تبحر إذن على السفينة أنزورا؟

فقال جاك مفسّراً عدم إبحاره: بلى يا سيدي. كدت أشرح هذا الآن، لقد أُعلنَ تأخّر السفينة عن الإبحار يوماً كاملاً بسبب عطل في أحد محرّكاتها، وحين كانت قد أوشكت على الإبحار

قرأت في إحدى الصحف المأساة التي وقعت هنا.

وتهدّج صوته واغرورقت عيناه بالدموع وهو يقول بصوت حزين: يا لأبي المسكين، يا لأبي المسكين!

في تلك اللحظة نظرَت نحوه السيدة رينولد التي كانت كأنها في حُلم وهي تقول: أنت لم تبحر إذن!

ثم عادت تقول بصوت خافت وكأنها تتحدّث إلى نفسها: لم تعُد هناك أهمية لسفرك على أية حال يا بنيّ.

فقال السيد هوتيت موجّهاً حديثه لجاك: تفضّل بالقعود يا سيد جاك. أنا أقدّر مشاعرك وأواسيك فيما أنت فيه، وربما كان تأخّرك عن سفرك مفيداً في حلّ غموض هذه الجريمة؛ فنحن في حاجة ماسّة إلى معرفة بعض الحقائق منك.

فقال جاك: سَلْ ما بدا لك يا سيدي، وسوف أجيب بكل ما أعرفه.

- أظن هذه الرحلة التي تخلّفت عنها كانت بناءً على رغبة والدك، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي، فقد وصَلتني رسالة برقية من أبي طلب منّي فيها السفر بحراً إلى بيونس آيرس، ثم أسافر منها إلى فالباريزو عبر جبال الإنديز، ثم السفر إلى سنتياغو.

- ماذا كان هدف الرحلة؟

- لا علم لي يا سيدي.

فقال هوتيت دهشاً: عجباً! كيف هذا؟!

فأخرج جاك ورقة من جيبه وقدّمها للمحقق وهو يقول: ها هي ذي البرقية، يمكنك قراءتها بنفسك يا سيدي.

وكان نصّ البرقية كالتالي: «امضِ على متن السفينة أنزورا إلى سنتياغو حيث تصلك تعليمات أخرى، الأمر مهم جداً. رينولد».

وقال جاك معقّباً: لأبي مصالح كثيرة في سنتياغو، ولم أكن أعرف بالضبط ما كان يريد مني القيام به هناك.

- أظنك أمضيت فترة طويلة من حياتك في أمريكا الجنوبية، أليس كذلك؟

فقال جاك: بلى يا سيدي. لقد نشأت هناك منذ طفولتي، ثم أكملت تعليمي في إنكلترا التي أمضيت فيها أغلب العطلات المدرسية، ولذا فأنا على علم بإنكلترا بأكثر من أمريكا الجنوبية.

- هل كنت تخدم في القوّات الجوية؟

- نعم يا سيدي.

وأوضح جاك بعد ذلك أنه لم يكن يعرف أن هناك أعداء لأبيه يمكنهم أن يهدّدوا حياته، كما أنه كان يلاحظ اضطراب حياة أبيه في الفترة الأخيرة ولكنه لم يكن يسمع عن ذلك السرّ الذي حدّثه عنه المحقق. وخلال التحقيق سأله المفتش غيرود: هل كانت علاقتك بأبيك جيدة؟

فأجابه الشاب باستنكار وامتعاض: بالطبع كانت على خير ما يكون!

فقال غيرود: ولكن هناك إجماع من الشهود على وقوع شجار كبير بينك وبينه قبل سفرك إلى باريس.

- نعم، لقد حدثت تلك المشاجرة.

- ألم تقل له في أثناء تلك المشاجرة ما كان نصّه: سوف أفعل ما أريده بعد موتك؟

- ربما أكون قلته، لا أذكر إن كنت قلته أم لم أقُلْه.

- ألم يجِبك قائلاً: ولكني لم أمُت حتى الآن، فقلتَ له: ليتك تموت سريعاً؟

ولم يستطِع الشاب أن يجيب، فقال له غيرود: أجِب يا سيد جاك، أجب سؤالي بسرعة.

فقال جاك محتدّاً على غيرود: وما معنى هذا؟ لقد كنّا في حالة شجار عنيف والمرء في مثل تلك الحالة يمكن أن يقول الكثير والكثير، بل إنه يمكن أن يقتل.

فقال له المحقق السيد هوتيت: ماذا كان سبب تلك المشاجرة؟

فأشاح جاك بوجهه وهو يقول: أرفض إجابة هذا السؤال.

فقال هوتيت بحزم: الموقف من الخطورة يا سيد جاك بحيث لن يكون رفضك الإجابة في صالحك أبداً.

ولكن جاك أصرّ على رفضه الإجابة، فقال بوارو فجأة وبثقة: يمكنني أنا إخبارك به يا سيد هوتيت.

فقال جاك بدهشة: وهل تعرفه يا سيدي؟!

فقال بوارو وهو ينظر إلى جاك: نعم يا سيد جاك، أعرفه. لقد كان تلك المشاجرة بسبب الآنسة مارثا دوبريل، أليس كذلك؟

وانتفض جاك واقفاً كما لو كانت عقرب قد لدغته في حين قال السيد هوتيت المحقق: هل هذه هي الحقيقة يا سيد جاك؟

فبدا أن جاك كان قد استسلم فأحنى رأسه قائلاً: كنت أحبّ مارثا وأريد أن أتزوّجها، ولكنني فوجئت بثورة عنيفة من أبي، ولم أستطع تحمّل الإهانات التي أهانني بها في ذلك الوقت ففقدت أعصابي.

فقال هوتيت يسأل السيدة رينولد: أكنتِ على علم بكل هذا يا سيدتي؟

فقالت بحزن عميق: نعم يا سيدي، وكنت أخاف دائماً من عواقب قصّة الحب هذه.

فقال الشاب بدهشة وحزن: أنتِ أيضاً يا أمّي تقولين هذا! مارثا فتاة رقيقة الحاشية طيّبة القلب بقدر جمالها، ماذا يمكن أن يؤخَذ عليها؟!

فقالت الأمّ وهي تشيح بوجهها عنه: لا شيء آخذه عليها يا ولدي، فقط كنت أفضّل أن تتزوّج بإنكليزية أو فرنسية ولم أكن أريدك أن تتزوج فتاة لا أصل لها.

وكان واضحاً من لهجتها أنها لا تريد ابنة غريمتها زوجةً لابنها الوحيد، كانت تفضّل الموت على هذا. ثم عادت تقول للمحقق: كان عليّ إخبار رينولد بتلك العلاقة التي نشأت بين جاك وتلك الفتاة منذ بدايتها، وقد ظننتها علاقة سطحية عابرة لا يمكن انتهاؤها بالزواج، وقد كان رينولد نفسه في حالة مقلقة من القلق والاضطراب مما جعلني لا أزيد من تلك الحالة لديه فآثرت ألاّ أخبره حتى يستقرّ نفسياً وذهنياً.

فتوجّه هوتيت بالسؤال لجاك قائلاً: هل أصاب الغضب والدك بمجرّد أن علم برغبتك في زواج الآنسة مارثا دوبريل؟

فقال جاك بحزن: نعم يا سيدي، لقد كاد يُجَنّ من الغضب آمراً إيّاي بقطع كل علاقة بين وبينها، فطلبت منه أن يذكر لي السبب في ذلك، ولكنه قال إن هناك شائعات تدور حول أمّها، فقلت له إني سأتزوّجها بعيداً عن أمّها، ولكن لم يزِده هذا إلاّ إصراراً على الرفض، فأصابني شعور بالظلم والاستبداد البادِيَين في رأيه مما جعلني أفقد أعصابي. وأظنني تلفّظت في تلك المشاجرة بأنني سأفعل كل ما أريده بعد موته.

فقال بوارو: قلت هذا بالطبع وأنت على علم بوصيّته، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي، كنت على علم بأنه ترك لي نصف ثروته وترك لأمي النصف الآخر، على أن أرثه بعد أمي.

فقال هوتيت مستكملاً تحقيقه: حسناً، وبعد؟

فقال جاك مكملاً: في أثناء الشجار كنت قد تأخّرت عن موعد قطاري فذهبت بسرعة إلى المحطة، وبعد أن تمالكت أعصابي خططت رسالة إلى مارثا أخبرها فيها بما جرى بيني وبين أبي، وبالطبع لم أخبرها بالسبب الذي جعل أبي يرفض، فجاءني ردّها شافياً لآلامي؛ قالت إننا سنواجه بقوةِ حبّنا أيّ حاجز يمكن أن يفصل بيننا، وحين يكتشف أبواي هذا سوف يوافقان على زواجنا.

فقال السيد هوتيت: حسناً، علينا الآن الانتقال إلى نقطة مختلفة، أتعرف شخصاً يُدْعى دوفين؟

- دوفين؟ لا يا سيدي، لم أعرف من قبل أحداً بهذا الاسم.

فناوله جاك ورقة مطوية وهو يقول: اقرأ هذه الرسالة إذن وأخبرني إن كانت موجّهة لأبيك، وأخبرني ممّن يمكن أن تكون قد أُرسلت لأبيك.

فقرأ جاك الرسالة ثم قال بدهشة: لأبي؟!

فقال هوتيت: نعم يا سيد جاك؛ فقد وُجدت في جيب معطفه.

فنظر جاك إلى أمّه نظرة خاطفة في حين أكمل هوتيت قائلاً: هل يمكنك التعرّف على المرسِل؟

فقال جاك بلهجة حائرة: مطلقاً يا سيدي.

فقال هوتيت: هذا عجيب! حسناً، فلننتقل إلى موضوع السلاح. لقد كان السلاح الذي ارتُكبت به الجريمة هدية منك لوالدتك، أليس كذلك؟

فشحب وجه جاك وهو يقول: أتقصد يا سيدي الخنجر المصنوع من معدن الطائرات؟! مستحيل! كيف يمكن ارتكاب جريمة مثل هذه بسلاح صغير كهذا؟

قال هوتيت: تلك هي الحقيقة؛ فهو سلاح صغير بالفعل ولكنّ له نصلاً حادّاً جداً.

وبدا كأن جاك لم يصدّق الأمر فقال: أين هذا السلاح؟ أريد رؤيته. أما زال في الجثة؟

فأجابه هوتيت: بل رفعناه عنها يا سيد جاك، ولكن إن كنت تريد رؤيته فلك هذا، يمكن أن يأمر السيد بكس بإحضاره.

وعلى الأثر قام مدير الشرطة السيد بكس ليحضر الخنجر، ولكنه عاد سريعاً باديَ القلق والحيرة والاضطراب وهو يقول: سيد هوتيت، لقد اختفى الخنجر! لا وجود له في الإناء الزجاجي مطلقاً!

فقمت من مكاني هاتفاً: هذا مستحيل، مستحيل!

وفوجئت بالجميع ينظرون إليّ بدهشة فانتبهت إلى حرج موقفي فتمالكت نفسي وأنا أقول بهدوء: هذا بالطبع مستحيل؛ فأنا قد رأيت الخنجر هذا الصباح منذ نحو ساعة ونصف الساعة.

فتساءل السيد هوتيت بدهشة: وكيف؟ ولماذا؟ هل دخلت الكوخ هذا الصباح؟

فقلت له باضطراب: لقد دخلت بواسطة المفتاح الذي أخذته من الشرطي الحارس.

- ولماذا يا سيد هيستنغز؟!

فقلت وقد شعرت بأنني كنت ضحية فتاة صغيرة: أظنني ارتكبت خطأ كبيراً يا سيد هوتيت أرجو أن تغفره لي.

فقال هوتيت وما زالت الدهشة تملأ صوته: أخبرنا إذن بكل ما حدث يا سيد هيستنغز.

فقلت وقد قرّرتُ ألاّ أخفي شيئاً عنهم: لقد التقيت بصديقة لي أرادت -بدافع الفضول- أن ترى الجثة، فأريتها لها.

فقال السيد هوتيت بحزم وصرامة: لكن في هذا مخالفة للأوامر يا سيد هيستنغز! كيف يمكنك ارتكاب شيء كهذا؟

فقلت بحرج شديد وإحساس فظيع بالمسؤولية: أنا في غاية الأسف يا سيدي.

فقال لي هوتيت متسائلاً: وهل قمت أنت بدعوتها للحضور؟

فأجبته نافياً: إطلاقاً يا سيدي؛ لقد التقينا مصادفة. وهي فتاة إنكليزية تقيم بشكل مؤقّت في مدينة ميرلنفيل.

فقال هوتيت وقد أدرك ما تعرّضت له من خداع: لا شك عندي في كونها شابة جميلة مما جعلك لا تستطيع رفض طلبها.

ثم تنهّد بعمق في حين قال السيد بكس: ولكنك يا سيد هيستنغز تركت الباب مفتوحاً بعد انصرافكما، أليس كذلك؟

فقلت وقد ازدادت علامات الحرج على وجهي: هذا هو الخطأ الأكبر الذي ارتكبته؛ لقد تركت المفتاح في الباب إلى أن أوصلتها إلى الطريق العام، وبعد ذلك تذكّرت هذا فعُدْت وأغلقت الباب وأعدت المفتاح للشرطي.

فقال السيد بكس: هذا يعني أن المفتاح ظلّ في الباب نحو ثلث ساعة تقريباً، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي.

- هذا الأمر في غاية الخطورة!

فقلت: لا شك في هذا يا سيدي.

وفجأة وجدنا المفتش غيرود يقول بابتسامة واسعة: بل هذا أمر رائع مثير للدهشة!

فقال هوتيت بدهشة: ولماذا يا سيد غيرود؟

فقال غيرود: في هذا دليل على كون القاتل أو على الأقل شريك له قريباً من هذا المكان، أي أنه كان هنا منذ نحو ساعة، مما يجعل البحث عنه سهلاً فيمكننا العثور عليه في أقرب وقت. ومما لا شك فيه أنه أخذ الخنجر لخوفه من أن تكون عليه بصمات أصابع القاتل.

فالتفت بوارو إلى مدير الشرطة السيد بكس قائلاً: لقد أخبرتنا أن الخنجر لم تكن عليه أية بصمات، أليس كذلك؟

فقال غيرود وهو يهزّ كتفيه: ربما لم يكن القاتل يعلم هذا!

فقال بوارو وهو يهزّ رأسه نفياً: لا أوافقك الرأي يا سيد غيرود؛ لقد كان القاتل مرتدياً قفّازاً ولا بدّ أنه كان واثقاً من عدم تركه بصمات على الخنجر.

فقال غيرود موضحاً لنظريته: يا سيد بوارو، أنا لم أقل إن القاتل هو الذي فعل هذا أو ظنّ أنه ترك بصماته، بل قلت إن شريكاً له هو الذي فعل هذا لأنه لم يكن يعرف أن القاتل لم يترك بصماته.

وهنا قاطعهما المحقق هوتيت بقوله: لقد انتهى العمل اليوم وعلينا العودة لمنازلنا للراحة وتناوُل الغداء.

وبينما كنّا أنا وبوارو خارجَين إلى البهو قال لي: سوف تخبرني بكل تفصيلات ما حدث عندما نكون في الفندق.

ثم توقّف فجأة عن السير وأخرج من جيبه شريط قياسٍ طول أسرع به نحو معطف معلَّق على مشجب مجاور للباب فقام بقياس طوله ابتداء من ياقته وانتهاء بطرفه الأسفل. ولم أكن قد رأيت ذلك المعطف معلَّقاً في ذلك المكان من قبل، وربما كان يخص السيد ستونر أو السيد جاك.

وأعاد بوارو الشريط إلى جيبه وهو يقول لنفسه بضع كلمات لم أستطع سماعها، ثم تأبّط ذراعي وانصرفنا إلى الفندق.

* * *

الفصل الثاني عشر

وبينما كنّا في طريقنا إلى الفندق سألت بوارو: لماذا قمت بقياس طول ذلك المعطف؟

فقال بلهجة ساخرة: كي أعرف طوله بالطبع!

فشعرت بالاستياء لأني أحسست أن بوارو أراد بإجابته إخفاء بعض الدلالات التي توصّل إليها عنّي، فسرت بجواره محاولاً الوصول إلى بعض هذه الدلالات بنفسي. وكان أول ما أثار تفكيري هو قول السيدة رينولد لجاك: "إذن فأنت لم تبحر، ليس هذا مهماً على أية حال". ماذا كانت تقصد؟ لا شك عندي في أن لهذه الكلمات دلالات خفية. هل من الممكن أن يكون لديها من المعلومات أكثر مما أخبرتنا به؟

وقطع بوارو تفكيري قائلاً: أراك تفكّر باستغراق تامّ يا هيستنغز، ماذا يملك عليك تفكيرك إلى هذه الدرجة؟

فأخبرته بما كان يثير تفكيري فقال: أراك على حق يا عزيزي، وأرى أن السيدة رينولد تخفي في نفسها الكثير والكثير من الحقائق، وأصارحك القول إنها أثارت شبهاتي منذ اللحظة الأولى.

فقلت مستفسراً: ولماذا تشتبه فيها يا بوارو؟

فقال ببساطة: الأمر واضح يا عزيزي هيستنغز؛ فهي المستفيدة الوحيدة من موت السيد رينولد زوجها لأنه أوصى لها بكل ثروته الضخمة، وقد جعلني هذا أفحص يديها لأرى إن كانت القيود حقيقية أم لا، وقد تأكدت من أن القيد كان حقيقياً مما يشير إلى أنها لم ترتكب الجريمة بمفردها. وكل ما أدلت به من أقوال غير هذا ليس غريباً عليّ، أقصد حكاية المقنَّعَين اللذين لم تتعرّف عليهما وحكاية السرّ الذي أرادا الوصول إليه... أظن أنني قرأت أو سمعت شيئاً عن مثل هذا من قبل. وهناك شيء آخر تأكّدتُ به من أنها لا تذكر الحقيقة، هذا الشيء هو الساعة يا هيستنغز، تلك الساعة التي تحطم زجاجها.

فقلت له بدهشة: ماذا عن الساعة يا بوارو؟!

فقال بوارو شارحاً رأيه: متى وقعت الجريمة في رأيك؟

فقلت مجيباً: في نحو الثانية بعد منتصف الليل، هذا ما أشارت إليه السيدة رينولد في أقوالها.

- أعلم ما قالته، وقد اقتنع الجميع بهذه الأقوال. ولكنني أظنها كاذبة؛ لقد تَمّت الجريمة قبل ذلك بنحو ساعتين، أي في نحو الثانية عشرة مساء.

- ولكن تقرير الطبيب الشرعي يقول...

فقاطعني بوارو قائلاً: تقرير الطبيب الشرعي يقول بوقوع الوفاة قبل فترة لا تقلّ عن سبع ساعات ولا تزيد على عشر ساعات من اكتشاف الجثة، أي أنها وقعت بين الثانية عشرة مساء والثالثة صباحاً؛ فقد عُثر على الجثة في العاشرة صباحاً، وقد قال الطبيب الشرعي إن الجريمة تَمّت بعد الثانية بقليل بناء على أقوال السيدة

رينولد. أظنك سمعت عن طريقة تحديد وقت وقوع الجرائم عن طريق الساعات المحطَّمة التي تتوقّف عند وقوع الجريمة. وقد حاول المجرم أن يفعل هذا، لقد حطم ساعة يد السيدة رينولد بعد أن قام بتقديمها ساعتَين كاملتَين لتقف عقاربها مشيرة إلى الثانية بعد منتصف الليل، وقد قام بهذا بالطبع ليوهم الشرطة أن الجريمة قد وقعت بعد الثانية بعد منتصف الليل بوقت قليل، ولكن القدر كان يقف ضده؛ فقد تحطم من الساعة زجاجها فقط، بينما ظلّت الساعة تدور مقدّمة ساعتَين مما جعلها تشير إلى السابعة مساء حين عثرنا عليها في حين كان الوقت لا يزيد على الخامسة.

ثم أخذ بوارو نفَساً عميقاً وقال: لقد أثار هذا الأمر في ذهني نقطتَين هامّتَين، أولاهما أن السيدة رينولد قد كذبت علينا، وثانيتهما أنه كان هناك من الأسباب القوية ما يجعل مرتكب الجريمة يقوم بتقديم الساعة لمدة ساعتَين.

فقلت له بحيرة: ماذا تُراه هذا السبب؟

فقال بوارو وهو يفكّر: لم أعرفه على وجه التحديد، ولكن هناك احتمالاً قائماً بأن الجاني كان يريد اللحاق بقطار الثانية عشرة والربع الذي يتحرّك من ميرلنفيل، فإذا كان الجاني قد أوهم الجميع بأن الجريمة تم ارتكبها بعد الثانية صباحاً بقليل في حين أنه ارتكبها في الثانية عشرة ثم لحق بالقطار الذي يقوم في الثانية عشرة والربع ليثبت وجوده في مكان آخر غير مكان الجريمة في وقت ارتكابها، وبهذا يمكنه الإفلات من العقوبة، فيما يعتقده بالطبع.

فقلت له هاتفاً: أحسنت يا صديقي، أحسنت! هذا هو التعليل الصحيح.

فقال بوارو: لا يمكنني الاطمئنان إلاّ بعد السؤال في محطة القطارات، ومما لا شك فيه أن عمّال المحطة لن ينسوا أبداً هيئة اثنين من الغرباء يغادران المدينة في ساعة متأخّرة منذ يومين.

فقلت له بحماس: بالطبع يا بوارو، هذا صحيح. فلنذهب مباشرة إلى محطة القطارات.

فقال بوارو: ولكننا لن نسأل هناك عن اثنين غريبَين ذوَي لحيتين طويلتين بالطبع. عجباً! أتصدّق تلك الأقوال التي تدور حول مجرمَين مقنَّعين يتخفيان بوضع لحىً مستعارة؟

فقلت له بحيرة: لا أفهم ما ترمي إليه يا بوارو! ماذا تعني؟

فقال موضحاً: لقد سمعتَني أقول لغيرود إنني سمعت عن جريمة قام بها رجلان لهما لحيتان وشيئاً من هذا القبيل، ومعنى هذا فيما أرى أن القائم بالجريمة الأولى هو القائم بالثانية، أو معناه أن المجرم في جريمتنا هذه قرأ بالتفصيل كل ما يخصّ الجريمة الأولى وكان يريد تطبيقها في هذه الجريمة لأنه علم أن المجرمين أفلتوا من العقاب في المرة الأولى.

فقلت له بغير اقتناع: ولكن جاء في خطاب السيد رينولد أن هناك سرّاً ما، فما تفسيرك لهذا؟

فقال بوارو موضحاً مرة ثانية: هناك بالتأكيد الكثير والكثير من الأسرار في حياة السيد رينولد، وخاصة تلك الحياة التي قضاها في سنتياغو، وأظن كلمة سنتياغو لم تأتِ إلاّ لتضليل رجال الشرطة؛ فقد تعمّدوا إظهارها ليضعوا في أذهاننا أن الجريمة مصدرها سنتياغو أو أن لها علاقة بهذه المدينة، في حين أن الخطر الحقيقي كان أقرب من سنتياغو بكثير، كان في فرنسا.

فقلت له وأنا لا أزال غير مقتنع: ما قولك إذن في عود الثقاب وعقب السيجارة اللذين وجدهما المفتش غيرود فأثبت كونهما منتجان في أمريكا الجنوبية؟

فأجاب بوارو مبتسماً: لقد وُضعا عمداً زيادة في تضليلنا، وقد جعلني هذا أسخر من فرحة غيرود عندما أعلن عثوره عليهما وشعوره بأنه يقترب من حلّ القضية.

فقلت بدهشة كبيرة: معنى هذا أن كل تلك الأقوال التي قيلت عن مجرمَين مقنَّعَين هي...

فقال بوارو مكملاً: كذب، لا شي غير الكذب.

فقلت والدهشة تتصاعد من نبرات صوتي: ما الحقيقة إذن يا بوارو؟!

فقال بوارو وهو شارد ببصره: لا يعلم تلك الحقيقة من الناس إلاّ السيدة أرنولد، ولكنها لن تعترف بها أبداً مهما كان أسلوب الضغط عليها؛ فهي قوية الإرادة والعزيمة. لقد كنت أشك فيها منذ البداية ثم غيّرت رأيي.

فقلت مستفسراً: ولماذا غيّرت رأيك؟

- كان السبب في هذا أنني رأيت حزنها العميق وصدمتها العنيفة عندما رأت جثة زوجها المقتول، ويمكنني أن أقسم أن الصيحة التي أطلقتها عندما رأت الجثة لم تكن قط صيحة مصطنعة.

فقلت له مؤمّناً على قوله: أنا أيضاً أوقن بهذا.

فقال بوارو وهو يفكر تفكيراً عميقاً: معنى هذا أنه لا يمكن أن تكون هي القاتلة، ولكن السؤال الآن هو: لماذا تعمّدت الكذب علينا؟ لماذا لم تَصدُقنا القول فيما يخص الرجلين المقنَّعين اللذين زعمت وجودهما؟ ولماذا عملت على تقديم ساعتها بمقدار ساعتَين؟ ولماذا فُتح الباب الخارجي للفيلاّ يا هيستنغز؟

- أظنّ أن ما قاله غيرود صحيح في هذا الشأن، أي أن الجاني نسي الباب مفتوحاً.

فقال بوارو: هذا بالفعل رأي غيرود، ولكنني لست مقتنعاً به؛ فالمجرم أو المجرمَين لم يغادرا الفيلاّ عن طريق الباب، بل عن طريق النافذة.

- النافذة! ماذا تعني؟! لم يُعثَر على آثار أقدام في حوض الزهور الذي يقع تحت نافذة غرفة النوم الخاصة بالسيد رينولد.

فقال بوارو مبتسماً: بل كان من الضروري أن تبقى هناك آثار أقدام يا عزيزي هيستنغز. هل تذكر ما قاله البستاني أوغست عن اعتنائه بالحوضَين ظُهر اليوم الذي وقعت فيه الجريمة؟ لقد رأينا آثار أقدامه في الحوض الأيسر الذي يقع على الباب الآخر من المدخل ولكن لم تكن هناك آثار لأقدام في الحوض الأيمن الذي يقع أسفل غرفة النوم، فما معنى هذا في رأيك؟ هذا يعني يا صديقي أن الذي ارتكب الجريمة عمل على مسح الآثار وتسوية أرضية الحوض بعد النزول من النافذة.

فقلت له بشكّ: وما الذي حملهم على استعمال النافذة وعدم استعمال الباب في الخروج من الفيلاّ؟ أظنك مخطئاً في هذا التحليل يا بوارو.

فقال بوارو وهو غارق في تفكيره: لم أعرف السبب حتى الآن، ولكن هذا رأيي، وأنا على ثقة من كل حرف منه.

- سنرى يا صديقي، سنرى.

* * *

الفصل الثالث عشر

تناولنا أنا وبوارو طعام الغداء صامتَين، وبعد ذلك قال بوارو بمكر: لم تخبرني حتى الآن يا صديقي العزيز بأمر تلك الفتاة التي غرّرت بك ونجحت في استدراجك لترى الجثة.

ولم أعمد إلى المراوغة بل قصصت عليه القصة كلّها بالتفصيل، فسألني وقد برقت عيناه ببريق له مغزى أعرفه تماماً: وما اسم تلك الفتاة الجميلة؟

فقلت له إنني لم أعرف اسمها الحقيقي وإن كل ما أعرفه عنها هو أن اسمها سندريلاّ، فعاد يقول بنفس المكر: هل تنوي زيارتها ثانية؟

وقعت عيناي على اللافتة المعلَّقة على الفندق المواجه للفندق الذي نسكنه وقد كُتب عليها اسم فندق دي فير، وفي تلك اللحظة تذكّرت أنها رجتني أن أذهب لزيارتها، فقلت بلهجة تحمل التأكيد والعزم: لقد سألتني أن أزورها في فندقها، ولكنني لن أفعل ذلك.

فقال بوارو بدهشة: لماذا يا هيستنغز؟

فقلت وأنا أهزّ كتفيّ: لا رغبة لديّ في هذا.

فقال بوارو بلهجة لامبالية: أظنها أخبرتك أنها نزيلة في فندق إنكلترا، أليس كذلك؟

فقلت نافياً: بل قالت إنه فندق دي فير.

فقال بوارو بابتسامة ماكرة خبيثة: بالفعل، كيف نسيت ذلك؟

واتضح لي فجأة أنه كان يستدرجني للاعتراف له باسم فندقها، وتذكّرت في تلك اللحظة أنني لم أكن قد ذكرت له اسم الفندق الذي أخبرتني أنها تسكن فيه، وقد استطاع استدراجي للاعتراف بذلك بكل بساطة. وفجأة نظر في ساعته قائلاً: يجب عليّ الانصراف الآن للّحاق بالقطار المتّجه إلى باريس والذي يحين موعد رحيله في الثانية والنصف بعد الظهر.

فهتفت بدهشة: وهل تعتزم السفر إلى باريس اليوم؟!

- نعم، اليوم.

سألته: وهل هذا السفر في نطاق البحث عن قاتل السيد رينولد؟

فأجابني باقتضاب: نعم.

فسألته: وهل تظنه في باريس في الوقت الحالي؟

فقال بثقة: أنا على ثقة من أنه ليس هناك في الوقت الحالي، ولكنني رغم هذا أجد أنه لا بدّ من البحث عنه هناك، في تلك المدينة الكبيرة. أعلم أنك لا تفهم شيئاً مما أقوله الآن ولكنني أعِدُك بشرح كل شيء في أقرب فرصة. هناك ضرورة ملحّة تدفعني لهذه

الرحلة رغم أني واثق من عدم وجوده هناك. لن أتغيب طويلاً بل ربما أعود غداً، وليس هناك من داع لمجيئك معي. يمكنك أن تبقى هنا لمراقبة غيرود جيداً، كما أرجّح أن تقوم بتوطيد علاقتك بالآنسة مارثا دوبريل!

فهتفت بسرعة: لقد ذكّرتَني! كيف عرفت بتلك العلاقة التي كانت بين جاك رينولد وهذه الفتاة؟

فقال بوارو بخبث: كان هذا محض استنتاج؛ فلا يمكن أن يعيش شاب وفتاة مثل هذين في مثل هذه المنطقة دون أن يقعا في الحب، كما أن الخلاف الذي دبّ بين الشاب وأبيه لا يمكن أن يكون إلاّ لأحد سببَين، أولهما المال وثانيهما الحب، وقد استنتجت أن السبب هو الحب وكان استنتاجي في محلّه.

وصمت برهة ثم قال مكملاً حديثه: ولا تنسَ أن لها عينَين خائفتين، بل مليئتَين بالخوف، وسوف أذكرها دائماً بأنها «ذات العينَين الخائفتَين».

فقلت بحيرة: ماذا تقصد؟

فقال: ستعلم كل شيء بعد وقت قصير يا عزيزي. يجب عليّ الآن الذهاب على المحطة حتى لا يفوتني القطار.

فهممت بالوقوف وأنا أقول: سأصحبك إلى المحطة.

فقال وهو يشير لي بيده: لا يا عزيزي، لا تُتعِب نفسك؛ فلا داعي لهذا، يمكنني الذهاب بمفردي.

وبعد أن انصرف بوارو ذهبت للتجوّل على الشاطئ وأنا أمنّي نفسي بأن أرى سندريلاّ هناك، ولكنني لم أحظَ بما تمنيت فرجعت

وتوجّهت نحو فندق دي فير مستجمعاً شجاعتي، ثم تقدّمت نحو البوّاب ووضعت في يده خمسة فرنكات وأنا أقول له: هل تعرف فتاة إنكليزية شعرها أسود تحجز غرفة في هذا الفندق؟ أنا لا أذكر اسمها على وجه التحديد.

فأجابني وهو يهز رأسه نفياً: لا يا سيدي، ليست هنا فتاة بهذه الصفات.

فقلت: كيف هذا؟ لقد أخبرتني بأنها تنزل هنا!

فقال البوّاب بإصرار: أؤكّد لك يا سيدي أنها لا تنزل هنا، وقد سألني عنها رجل غيرك منذ نصف الساعة.

فقلت له وقد تبادر إلى ذهني شيء ما: وهل كان هذا الرجل أصلع الرأس غزير شعر الشارب قصير القامة؟

فقال الرجل: بالضبط يا سيدي.

وأكّد لي هذا أن بوارو هو الذي سأل عنها أثناء ذهابه إلى المحطة وأنه لم يكن يصدّقني فيما قلته، وقد أصابني هذا بالضيق، ولكن هناك ما صرفني عن التفكير في هذه النقطة؛ فقد تساءلت بيني وبين نفسي عن السبب الذي جعل سندريلاّ تعمل على تضليلي عن طريقها! فلماذا لم تذكر لي اسمها الحقيقي ولا اسم الفندق الذي تنزل به؟

وبقيت أفكّر في هذا الأمر وأنا ذاهب إلى الفيلاّ، وحين بلغت ملعب الغولف ومكان الجريمة قعدت على مقعد حَجَريّ قريب من المكان الذي توضع فيه أدوات البستاني، فأخذت أفكر في أمر تلك الفتاة الغامضة التي تدعو نفسها سندريلاّ.

انتبهت من تفكيري على صوت شخصَين يتحدّثان في مكان ما خلفي، وفي الحين أدركت أنهما كانا يقفان في حديقة فيلاّ مرغريت التي تقيم فيها السيدة دوبريل مع ابنتها الجميلة مارثا، وكانت المسافة بيني وبين تلك الحديقة قصيرة لا يوجد فيها غير بعض شجيرات كثيفة الأوراق والأغصان. واقترب منّي الشخصان اللذان كانا يتحدّثان فسمعت بوضوح صوت مارثا وهي تقول: أحقاً ما تقول؟ أتعني أن كل متاعبنا ومشكلاتنا قد انتهت؟

وحين ردّ الشخص الآخر أدركت على الفور أنه جاك رينولد الذي كان صوته واضحاً وهو يقول لها: أنت تعلمين يا حبيبتي أنه ما من قوّة على وجه الأرض يمكنها التفرقة بيننا، وها قد زالت آخر عقبة في طريقنا.

فقالت بوَجل: يا إلهي! ولكنني مازلت خائفة يا جاك، خائفة جداً!

انتبهت فجأة إلى أنه من غير اللائق وليس من أخلاقياتي أن أسترق السمع على مثل هذين الحبيبَين؛ فقمت من مكاني مبتعداً وأنا أختلس نظرة أخيرة سريعة إليهما من خلال الشجيرات فرأيت الفتاة وكانت تبدو خائفة جداً في حين كان جاك يحاول تهدئتها وهو يقول: ممَّ تخافين يا حبيبتي؟

فقالت له بلهجة حانية: ليس خوفي من شيء ما يا حبيبي، ولكنه خوف عليك أنت!

كنت قد أسرعت مبتعداً عنهما فلم أسمع ردّ جاك عليها، وحين كنت أبتعد عن المكان لمحت المفتش غيرود منبطحاً على وجهه منصتاً بانتباه شديد إلى حديثهما، وحين أبصرني أشار إليّ

بالصمت، فظللت صامتاً حتى نهض من مكانه ثم ابتعدنا عن المكان وأنا أقول له: ماذا تفعل هنا يا سيد غيرود؟

فقال وقد تسلّل شيء من الضيق إلى لهجته: أفعل ما كنت تفعله أنت، أستمع إليهما.

فقلت مبرّئاً ساحتي: ولكنني لم أستمع إليهما عن عمد.

فقال وهو يشيح بوجهه: ولكن أنا كنت متعمّداً. ثم نظر إليّ نظرة سخط وهو يقول: أنت تفسد جهودي دائماً بتدخّلك فيما لا شأن لك فيه، ولولا أن ظهرت فجأة لتمكّنت من سماع المزيد من أقوالهما!

ثم توقّف فجأة وهو يسألني: أين ذهب صاحبك المخبر العتيق؟

فقلت ببساطة: لقد سافر إلى باريس.

فقال بصفاقة: هذا أفضل ما يفعل، وإذا أطال البقاء فيها لكان ذلك أفضل، ولكن لماذا ذهب إلى باريس؟

فهززت كتفيّ وأنا أقول: لا يمكنني التصريح بهذا.

فنظر إليّ نظرة سخط أخرى ثم قال وهو يهمّ بالانصراف: إلى اللقاء.

ورجعت إلى الفندق ثم خلدت للنوم راجياً أن يطلع النهار عليّ بجديد في تلك القضية المعقّدة، وفي الصباح الباكر توجّهت إلى مطعم الفندق ثم تناولت إفطاري، ولكن فجأة وجدت النادل يأتيني مهرولاً وهو يقول: أنت يا سيدي ممن يبحثون في قضية فلاّ جنيفييف، أليس كذلك؟

فقلت بدهشة: بلى، لماذا؟

فقال الرجل باضطراب شديد: وقعت هناك جريمة ثانية في مساء الأمس يا سيدي!

فهتفت بذهول: ماذا؟!

ثم تركت الطعام وانطلقت مسرعاً نحو الفيلاّ مردّداً في نفسي وكأنني جُننت: جريمة أخرى... جريمة أخرى وبوارو بعيد عن مكان حدوثها! تُرى من المجني عليه؟!

وحين بلغت مدخل الفيلاّ كان بعض الخدم يتحدّثون بعصبية وخوف وهياج، فأمسكت بذراع الخادمة العجوز فرانسواز وسألتها: ما الذي حدث؟ تكلّمي!

فقالت والخوف يملأ صوتها: جريمة أخرى يا سيدي، هذا شيء فوق الاحتمال... بالتأكيد أصبحت هذه الفيلاّ ملعونة! هذا أمر أكيد. لن أبيت فيها ليلة أخرى بعد ما حدث. يا إلهي! لقد أصبحت أخاف أن يحلّ الدور عليّ.

فقلت لها هاتفاً: من قُتل هذه المرّة؟ تكلّمي أيتها العجوز.

- لا أعرف يا سيدي، إنه رجل غريب عن هذا الجزء من المدينة وقد وجدوا جثته في كشك أدوات الزراعة قرب المكان الذي كانت فيه جثة سيدي رينولد، وكانت الجثة مطعونة بنفس الخنجر الذي قُتل به سيدي!

* * *

الفصل الرابع عشر

انطلقت نحو الكشك مسرعاً حيث لم يمنعني الحارسان اللذان كانا واقفَين ببابه من الدخول، وفي الداخل وجدت غيرود يفحص أرضية الكشك الذي تناثرت في جوانبه أدوات زراعية وملابس قديمة. وحين أبصرني غيرود نظر نحوي ساخراً وقال وهو يسلط ضوء مصباح كهربي على ركن بعيد من أركان الكشك: أقدّم لك القتيل الثاني يا سيد هيستنغز.

ونظرت إلى الجثة التي كانت على ظهرها فوجدتها لرجل قامته متوسطة وبشرته ملوَّحة بفعل الشمس في حين كان يبلغ من العمر نحو الخمسين عاماً وكان يرتدي حُلّة زرقاء على درجة عالية من الأناقة وارتفاع الثمن إلاّ أنها لم تكن جديدة. وكان مقبض الخنجر بارزاً من جانبه الأيسر فوق موضع القلب تماماً حيث كان منغرساً في قلبه حتى المقبض. كان نفس الخنجر الذي رأيته في الإناء الزجاجي بالكوخ الواقع وراء الفيلاّ في صباح اليوم السابق.

وقال غيرود: نحن في انتظار وصول الطبيب الشرعي بين لحظة وأخرى، ولكنني لا أظن الأمر يحتاج إليه لأن الوفاة واضحة؛ فقد لقي الرجل حتفه فوراً بطعنة من هذا الخنجر في موضع القلب تماماً.

فسألته: ومتى تظن هذا قد حدث؟

فقال وهو يهزّ رأسه: لا يمكنني تحديد ذلك بدقة، ولكن الحالة العامة للجثة توحي بأن الوفاة قد تمّت منذ نحو ما لا يقلّ عن اثنتَي عشرة ساعة.

ثم سألني مفكّراً: متى كانت آخر مرة رأيتَ فيها الخنجر؟

فقلت مجيباً: أمس في نحو العاشرة صباحاً.

فقال: أظن الجريمة تمّت بعد ذلك بقليل.

فقلت له بدهشة: وكيف يمكن أن تتمّ الجريمة في حين يروح الناس ويجيئون طوال اليوم أمام الكشك؟!

فقال غيرود ضاحكاً: أراك تُحدِث تقدّماً ملحوظاً في مجال البحث الجنائي يا سيد هيستنغز! ثم تحوّلت لهجته إلى ما يشبه السخرية وهو يقول: هل تظن يا سيد هيستنغز أن الجريمة قد وقعت بالفعل في هذا الكشك؟

فقلت بحيرة: أظن هذا يا سيد غيرود.

فقال والسخرية تتزايد في نبرات صوته: يا لها من قدرة فائقة على البحث الجنائي يا سيد هيستنغز!

ثم أشار نحو الجثة وهو يقول: وهل تظن رجلاً مطعوناً في قلبه يقع أرضاً مستقيم البدن وقدماه متجاورتان وذراعاه ممدّدان على جانبيه؟ لا أظن هذا معقولاً يا سيد هيستنغز، ألا توافقني الرأي؟ وحتى إن كان هذا هو الوضع الذي كان عليه قبل موته فلا أظنه يسمح للقاتل بقتله دون دفاع عن نفسه، أليس كذلك يا سيد هيستنغز؟

ثم سلّط ضوء مصباحه على أرضية الكشك فرأيت بوضوح آثار سحب الجثة على الأرض في حين قال هو: لقد قام رجلان بسحب الجثة إلى موضعها الحالي حسبما توضّح الآثار، وآثار أقدام هذين الشخصين لا تظهر خارج الكشك حيث الأرض صلبة، ولكنهما أزالا هذه الآثار من داخل الكشك حتى لا يتعرّف أحد عليهما، وعملية إزالة الآثار حول الجثة توضح أنه كان بين هذين الشخصين امرأة.

فقلت بدهشة: ماذا؟ امرأة؟!

- نعم، امرأة.

فقلت متسائلاً: وكيف استطعت أن تعرف ذلك وقد أزالا آثار أقدامهما؟

فأمسك شيئاً عالقاً بمقبض الخنجر وهو يقول: عرفت حين وجدت هذا.

وكان هذا الشيء هو شعرة طويلة سوداء من رأس سيدة لا شك. ثم قال وهو يشير إلى بعض الحُفَر الصغيرة في أرضية الكشك: هذه الحفر ناشئة عن كعب عال لحذاء امرأة. لقد أزال الفاعلان الآثار ولكنهما غفلا عن إزالة أثر هذه الحفر الصغيرة.

ثم وضع الشعرة مكانها مرة ثانية وقال: هل لاحظت شيئاً آخر يا عزيزي هيستنغز؟

ولم أكن قد لاحظت شيئاً آخر فلم أستطع إلاّ أن أهزّ رأسي خجلاً، فقال: ألقِ نظرة على يديه.

وحين نظرت إليهما وجدت أن له أصابع كبيرة وأظافر خشنة

صلبة متآكلة، ورغم هذا كلّه لم أفهم شيئاً مما يقصده غيرود، فنظرت إليه متسائلاً فقال موضحاً: ليست هذه بأصابع رجل غني بل هي أصابع رجل فقير يعمل بيديه ليكسب قُوته، وبالرغم من ذلك فهو يرتدي زيّاً باهظ الثمن يدلّ على الترف. هل ترى هذا منطقياً؟

فقلت وقد أدركت مقصده: بالطبع لا.

فأكمل غيرود قائلاً: كما أنه لا يوجد في ملابسه كلّها ما يشير إلى صانعها أو بائعها، فماذا تظن معنى هذا كله؟ أظن هذا الرجل كان يريد أن يظهر بشخصية أخرى غير شخصيته الحقيقية، أي أنه أراد إخفاء شخصيته الحقيقية ليعيش بشخصية أخرى، فلماذا؟ هل أراد أن يهرب من شيء أو من حُكم؟ هذا ما نريد أن نعرفه.

ثم أردف قائلاً وهو ينظر إلى الخنجر: ولم نجد للمرة الثانية أية آثار لبصمات الأصابع على الخنجر، وهذا يعني أن القاتل كان يرتدي قفّازاً.

فقلت له متسائلاً: أتظنّ القاتل واحداً في الجريمتَين؟

فأجاب قائلاً: لا أظن أن ما أعتقده ذو أهمية الآن.

ثم استدار نحو الباب ورفع صوته منادياً: مارشود.

فأقبل الشرطي مارشود فقال له غيرود: لقد أرسلت في طلب السيدة رينولد منذ ربع ساعة فلماذا لم تحضر حتى الآن؟

فقال مارشود: إنها في الطريق مع ابنها السيد جاك الآن.

فقال غيرود منبهاً مارشود: فليكن، ولكني أريد كلاّ منهما على حِدَة.

وبعد لحظات أقبلت السيدة رينولد فأشار غيرود نحو الجثة الجديدة وقال لها: هذه جثة المجني عليه يا سيدتي، فهل تعرفينه؟

فنظرت السيدة رينولد إلى وجه القتيل بهدوء ثم قالت: لا يا سيد غيرود، لم أَرَه من قبل قط.

- هل يمكن أن يكون أحد اللذين اقتحما غرفة نومك ليلة الحادث؟

فقالت بلهجة واثقة: لا أظن هذا، بل أنا واثقة من أنه ليس أحدهما.

فقال غيرود: شكراً لك يا سيدتي، هذا كل ما كنت أريد معرفته منك.

وبعد انصرافها دخل جاك إلى الكشك وأكّد بدوره أنه لم يعرف ذلك الرجل وأنه لم يَرَه من قبل. بعد ذلك قال غيرود للشرطي مارشود: أدخل الشاهدة التالية.

وكانت الشاهدة التالية هي السيدة دوبريل التي أقبلت تعلن احتجاجها قائلة: ما علاقتي أنا بهذا كلّه؟ ولماذا تستدعونني للشهادة؟ أنا أرفض تماماً هذه المعاملة!

فقال غيرود بهدوء: سيدتي، نحن نتحرّى عن جريمتَي قتل، فمن يُدرينا أنك لم تقومي بهما؟

فهتفت السيدة دوبريل بغضب جمّ: كيف يمكنك توجيه مثل هذا الاتهام الفظيع إليّ؟! أقسم أن أشكوك إلى رؤسائك. نحن نعيش هنا أحراراً في وطن حُرّ.

فأمسك غيرود الشعرة الطويلة من فوق مقبض الخنجر وهو يقول لها: ما قولك إذن في هذه الشعرة؟ فلنطابقها على شعر رأسك.

فتراجعت بفزع شاحبة الوجه وهي تصيح: هذا افتراء وكذب! وكل من يزعم أنني قد ارتكبت هاتين الجريمتين فهو كاذب.

فقال غيرود: اهدئي يا سيدتي، اهدئي. نحن لم نوجّه الاتهام إليك حتى الآن، كل ما نريده هو أن تجيبي على بعض الأسئلة دون هياج ولا ثورة. هل هذا ممكن؟

فقالت مستسلمة: أنا طوع أمرك يا سيدي.

فأشار غيرود نحو الجثة وهو يقول لها: ألقي نظرة على هذا القتيل وأخبريني إن كنت قد رأيتِه من قبل في هذه المنطقة من المدينة.

فنظرت السيدة دوبريل إلى وجه القتيل الذي كان قد ازداد شحوباً ثم قالت: لا يا سيدي، لم أرَه من قبل ولا أعرفه.

فقال لها غيرود: شكراً لك يا سيدتي، يمكنك الانصراف.

ثم عاد غيرود يفحص كل جوانب الكشك مرة ثانية وهو يتحرّك على يديه وركبتيه، ووجدته يهتمّ بصفة خاصة ببعض الملابس القديمة التي كانت موضوعة في أحد أركان الكشك، وكانت عبارة عن معطف بالٍ وبنطال قديم، كما بدا عليه الاهتمام أيضاً بزوج من القفّازات القديمة ثم تلاشى ذلك الاهتمام ووجدته يلقي بهما جانباً. بعد ذلك اتّجه نحو مجموعة من الأواني فقلبها رأساً على عقب على أمل أن يجد فيها أيّ دليل أو أثر. وفي النهاية قام واقفاً حين رأى السيد بكس يدخل مع الطبيب الشرعي وكاتب

التحقيق والمحقق السيد هوتيت الذي صاح قائلاً: هذا شيء يفوق التصوّر يا سيد غيرود؛ تُرتكب جريمة ثانية قبل كشفنا عن غموض الأولى! من تُراه الضحية هذه المرة؟

فقال غيرود مجيباً: لم نعرف حتى الآن.

- وأين الجثة؟

فأشار غيرود نحوها وهو يقول: ها هي ذي يا سيد هوتيت، كما أن الطعنة في القلب وقد تمّت بنفس الخنجر الذي استُخدم في الجريمة الأولى والذي كان قد سُرق من الفيلاّ. يمكنك فحص الخنجر بحرّية فليس عليه من أثر لبصمات.

وكان الطبيب قد انحنى يفحص الجثة. وقال المفتش غيرود: إن الجريمة ازدادت غموضاً، ولكنني سأعرف كيف أضع يدي على القاتل أو القتلة.

وفي تلك اللحظة وقف الطبيب وقال للمفتش بدهشة: أتقول إن هذا الرجل قُتل أمس صباحاً؟

- لقد حدّدت هذا الوقت بناءً على وقت سرقة الخنجر، ولكن من المحتمل أن يكون قد قُتل في أيّ وقت أمس، صباحاً أو مساء.

وهنا قال الطبيب بهدوء: هذا الرجل مات أو قُتل منذ ثمانٍ وأربعين ساعة، وربما أكثر.

وتبادلنا جميعاً نظرات الدهشة!

* * *

الفصل الخامس عشر

تمتمت قائلاً كأنما أحدّث نفسي: كيف يمكن أن تكون الوفاة قد تمت قبل ثمانٍ وأربعين ساعة بينما الجريمة وقعت بخنجر سُرق منذ أربع وعشرين ساعة؟

وقبل أن يردّ أحد أقبل أحد رجال الشرطة وسلّم إليّ برقية من بوارو يقول فيها إنه سيصل إلى ميرلنفيل في قطار الثانية عشرة والنصف ظهراً، ونظرت إلى ساعتي فوجدتها الثانية عشرة والربع، ومن ثم استأذنت في الانصراف. وأسرعت إلى المحطة لأكون أول من يخبر بوارو بالتطوّرات الجديدة في الجريمة.

وحين تأخّر القطار عن موعده بضع دقائق شغلت وقتي بالحديث مع رئيس الحمّالين. كان رجلاً تبدو عليه سمات الذكاء وقوّة الملاحظة، وسألته عن احتمال رؤيته لاثنين من الأجانب غادرا المدينة ليلة الحادث في قطار منتصف الليل ولكنه أكدّ لي أنهما لو كانا قد فعلا هذا لرآهما، وأنه لا يعقل أن يركب أجنبيان قطار منتصف الليل دون أن يغفل عنهما.

وفجأة وجّهت إليه سؤالاً لم أدرِ في تلك اللحظة كيف خطر ببالي، فقلت: والسيد جاك رينولد، هل غادر المدينة في تلك الليلة بقطار منتصف الليل؟

وكم كانت المفاجأة شديدة الوقع عليّ حين أجاب قائلاً: لا يا سيدي، كيف يغادر المدينة بعد أن كان قد وصل إليها قبل نصف ساعة؟!

وفكّرت في عبارته مدهوشاً، ثم قلت ببطء: أتعني أن الشاب جاك رينولد وصل إلى المدينة في تلك الليلة؟

- نعم، وصل إليها في آخر قطار يصل إليها، أعني في قطار الساعة الحادية عشرة والنصف مساء.

ودارت الأرض بي، وأدركت سرّ الخوف المطلّ من عينَي الحسناء مارثا دوبريل. إذن فقد كان جاك رينولد موجوداً بالمدينة عند وقوع الجريمة، فلماذا لم يقُل هذا؟ بل لماذا جعلنا نعتقد بأنه كان في ميناء شيربورغ وقت وقوع الجريمة؟ لا شك أن مارثا كانت تعرف هذه الحقيقة، كانت تعرف أنه كذب علينا ولذلك استبدّ بها الخوف، ولذلك أيضاً أرادت أن تعرف منّا ما إذا كان الاشتباه قد تركّز حول شخص معيّن أم لا.

وقطع حديثي مع رئيس الحمّالين وصولُ القطار الذي يقلّ بوارو من باريس، وما كاد يراني حتى عانقني مبتهجاً وهو يقول: لقد نجحت في مهمّتي في باريس يا عزيزي هيستنغز.

- أحقاً؟ إني سعيد بهذا، ولكن هل سمعت آخر الأنباء؟

- أية أنباء؟ هل قبض غيرود على القاتل؟

- لا، ولكن يجب الذهاب فوراً إلى الفيلاّ؛ لقد وقعت جريمة ثانية.

وفوجيء بوارو بهذا النبأ، فتمتم كأنّه لا يصدّق ما سمع: ماذا

تقول؟ جريمة ثانية؟! إذن فأنا مخطئ، إذن فقد فشلت في مهمّتي بباريس! لا شك أن غيرود سيسخر منّي.

- ألم تكن تتوقّع هذا؟

- أنا؟ لا طبعاً، إن هذا النبأ هدم نظريّتي من أساسها، ولكن هذا مستحيل، مستحيل! مستحيل أن أكون مخطئاً إلى هذا الحدّ!

وقبل أن أقول شيئاً أردف هو قائلاً: انتظر يا صديقي، لا تقُل شيئاً، إن وقوع هذه الجريمة مستحيل إلا إذا...

وصمت برهة مفكّراً، ثم قال بهدوء وثقة: إن هذا القتيل في الجريمة الثانية لا بدّ أن يكون رجلاً متوسّط الطول في نحو الخمسين من العمر، وقد وُجدت جثّته في الكشك القريب من مكان الجريمة الأولى، وقد مضى على الوفاة أكثر من ثمانٍ وأربعين ساعة، وقد طُعن بخنجر، وليس من الضروري أن تكون الطعنة في الظهر.

وجاء دوري لأفتح فمي بدهشة بالغة وكأني لا أصدّق ما سمعت، ثم خطر ببالي فجأة أن بوارو عرف على نحو ما بأمر هذه الجريمة الثانية، وإلاّ لَما ذكر هذه التفصيلات بكل هذه الدقة.

ومن ثم هتفت قائلاً: بوارو، إنك تسخر منّي ولا شك!

- أؤكّد لك أني لم أسمع بهذه الجريمة الثانية إلاّ منك، ألم تَرَ وقع الخبر عليّ؟

- ولكن كيف عرفت كل هذه الحقائق عنها؟!

- لأنني على صواب في استنتاجي، ولأنني لم أخطئ في النظرية التي تصوّرت بها وقوع الجريمة، الأولى والثانية. والآن إذا نحن انعطفنا يساراً فسنصل إلى ملعب الغولف ومنه إلى فيلاّ جنيفييف في أسرع وقت.

وحدّثت بوارو بما عرفت من أمر الجريمة الثانية أثناء سيرنا. وأخيراً قال: كان الخنجر موجوداً في الجثة، أليس كذلك، هذا عجيب! أهو نفس الخنجر الذي ارتكبت به الجريمة الأولى؟

- نعم، إنه هو نفسه وهذا ما يجعل الأمر مستحيلاً!

- لا شيء مستحيل يا عزيزي، ربما كان هناك خنجران من طراز واحد.

- أظن أن هذا احتمال مستبعَد.

فقال بابتسامة خبيثة: ولماذا تظن هذا؟ ألم يُصنع هذا الخنجر من حطام الطائرة بناء على طلب جاك رينولد ليهديه إلى أمّه؟ إذن فقد كان في مقدوره أن يطلب صُنع خنجر آخر لنفسه.

فقلت له بدهشة: ولكنّ أحداً لم يقُل باحتمال وجود خنجرَين من ذلك النوع!

فقال موضحاً وجهة نظره: إيّاك أن تعتمد في هذه القضايا على ما تسمعه؛ فهناك أشياء لا تُذكر في التحقيق ولا يظن المرء أن لها أهمية، كما أن هناك أشياء أخرى يتعمّد البعض ذكرها لتضليل العدالة، وكل هذا متوقّف على مراد الشاهد وميله.

وفي تلك اللحظة وصلنا إلى الكشك حيث كان الجميع هناك، فبادلهم بوارو التحية ثم فحص الكشك ببصره وأمسك

الملابس القديمة وأخذ يفحصها ثم قال: هذه ملابس قديمة من ملابس البستاني، أليس كذلك؟

فقال غيرود بسخرية: إنها كذلك بالطبع.

فانحنى بوارو نحو الجثة فاحصاً إيّاها بدقة وهو يلاحظ خشونة الأصابع وتشقّق الأظافر، وبعد ذلك نهض قائلاً للطبيب: هل هناك أثر لزَبَد حول فم القتيل يا دكتور؟

فقال الطبيب: لا يا سيد بوارو، أعني أنني لم ألاحظ هذا.

فقال بوارو: أرجو إذن أن تفحص جوانب الفم مرة أخرى.

فقام الطبيب بفحص فم القتيل ثم قال مومئاً برأسه: هذا صحيح يا سيد بوارو، ما زالت هناك آثار زَبَد حول الفم.

فأمسك بوارو الخنجر الذي تم انتزاعه من الجثة ووضْعه في إناء زجاجي بجوارها، ثم قال فجأة وعيناه تبرقان: يا له من جرح عجيب! هل لاحظت يا دكتور أنه لم ينزف دماً؟ نعم، لا توجد دماء حول موضع الجرح على الملابس كما أنه لا يوجد على نصل الخنجر إلاّ النزر اليسير من الدماء، وهو أشبه بسائل أصفر اللون.

فقال الطبيب بدهشة: حقاً يا له من شيء عجيب!

فقال بوارو وهو يهزّ رأسه: على الإطلاق يا سيدي، هذا أمر في غاية البساطة؛ لقد تم طعن الرجل في هذا الموضع بالخنجر بعد أن كان قد مات.

ثم التفت نحو غيرود وقال: ألا تتفق معي في هذا يا سيد غيرود؟

فقال غيرود: بلى يا سيد بورو، أنا أتفق معك في هذا كل الاتفاق.

فقال المحقق هوتيت هاتفاً: هذا شيء عجيب! لماذا يتمّ طعن رجل بعد وفاته؟ أنا عاجز عن استيعاب هذا الامر!

فقال بوارو بنظرة ماكرة: لتحقيق هدف ما.

فقال رئيس الشرطة السيد بكس: كيف لقي الرجل حتفه إذن؟!

فقال بوارو ببساطة مستفزّة: كانت ميتته طبيعية إثر نوبة من نوبات الصرع المفاجئ.

فعاد الطبيب الشرعي الدكتور ديورانت يفحص جثة الرجل بدقة، ثم لم يلبث أن وقف قائلاً: أنا أوافقك على هذا الرأي يا سيد بوارو، كما أني أقدّم اعتذاري بسبب اعتقادي الخطأ بأنه قد مات طعناً بالخنجر.

وصار بوارو في ذلك الوقت بطلاً حقيقياً للموقف، فتقدّم الجميع يهنّئونه على ذكائه في استنتاجاته، وتقدّم لهم بوارو بالشكر ثم استأذنهم حتى يرجع إلى الفندق لتناول طعام غدائه. ولكن غيرود استوقفنا قبل خروجنا وقال موجّهاً حديثه لبوارو وهو يشير نحو الشعرة التي كانت حول مقبض الخنجر: وما قولك في هذه الشعرة يا سيد بوارو؟

فقال بوارو ببساطة وهو يهزّ كتفيه: هذا مجرّد تضليل لنا يا سيد غيرود، مزيد من التضليل.

* * *

عندما بلغنا الفندق وأرسلنا في طلب الغداء قلت لبوارو: هل يمكن أن تحدّثني عن تلك المهمّة التي قمت بها في باريس؟

فقال: بالطبع يا عزيزي هيستنغز.

ثم مدّ يده في جيبه ليُخرج ورقة صغيرة باهتة اللون تبدو مقتطعة من صحيفة قديمة جداً قدّمها إليّ وهو يقول: انظر إلى صاحبة الصورة ثم أخبرني إن كنتَ تعرف صاحبتها.

فقلت: رغم أن هذه الصورة ملتقَطة منذ سنوات طويلة إلاّ أن الملامح واضحة جداً يا بوارو؛ هذه هي السيدة دوبريل نفسها.

فقال بوارو وعلى شفتيه ابتسامة: أصبت يا عزيزي، ولكنك أخطأت في نفس الوقت.

فقلت بدهشة متزايدة: ماذا تعني؟!

فقال بوارو: هذه بالفعل صورة السيدة دوبريل، ولكن هذه الصورة عندما نُشرت لم تكن السيدة دوبريل تحمل هذا الاسم، بل كان اسمها السيدة بيرولدي.

فقلت وقد بدأت أتذكّر: أتعني...؟

فقال بوارو: نعم يا عزيزي، هي نفسها السيدة بيرولدي التي أقامت محاكمتُها الدنيا وأقعدتها في ذلك الوقت.

فتذكّرت تلك القضية التي كانت مثار الحديث والشغل الشاغل للصحافة في باريس والعالم كله.

* * *

الفصل السادس عشر

قبل أحداث قضية مصرع السيد رينولد بنحو عشرين سنة وصل السيد بيرولدي (وهو من مدينة ليون) إلى باريس مع زوجته الجميلة وابنتهما الطفلة الصغيرة. كان السيد بيرولدي يعمل كشريك أصغر في إحدى شركات صناعة الخمور، وكان من ميزاته أنه كان رجلاً قوياً في منتصف العمر يحب رغد العيش ويحب زوجته ويقدّرها ويحب حياته الزوجية.

وكانت أرباح الشركة قليلة مما جعله وزوجته يعيشان حياة متوسطة، ولكن زوجته كانت مغرورة بحسنها وشبابها وكانت تحب الفخامة والأبّهة. وكان الغموض يحيط بمولدها مما جعلها تُشيع بين الناس أنها ابنة غير شرعية لأحد الأمراء الروس الذين ماتوا في أثناء الثورة البلشفية. ومهما كانت حقيقتها فقد بقيت موضعاً لافتتان جميع من عرفوها من الرجال. وبين أصدقاء الأسرة كان هناك محام شاب اسمه جورج كونو، وسريعاً ما نشأت علاقة عاطفية بينً السيدة بيرولي والمحامي الشاب مما جعل الأقوال تنتشر عنهما في كل مكان، كما انتشرت أقوال أخرى عن علاقتها برجال آخرين.

وبعد أشهر ثلاثة من تلك العلاقة ظهر في حياة الأسرة شخص

جديد أمريكي اسمه هيرام تراب، وكان يُقال إنه من أصحاب الملايين. ولم يكَد ذلك الوافد الجديد يتعرّف بالسيدة بيرولدي حتى كان أسيراً لجمالها، وبات من الواضح للجميع أنه يحبّها حبّاً جمّاً ويحترمها بنفس القدر.

وفي تلك الفترة كانت السيدة بيرولدي تخبر أصدقاءها وصديقاتها بأنها خائفة لأن زوجها أقحم نفسه في بعض الشؤون السياسية الدولية، كما قالت إنه انضمّ إلى جمعية سياسية خطيرة وإن تلك الجمعية قد عهدت إليه بسرّ خطير من أسرارها رغم كونه شاباً، وذلك السرّ المزعوم كان يهدّد حياته تهديداً مباشراً.

وبحلول يوم الثامن والعشرين من شهر نوفمبر حدث ما كانت تقول إنها تخشاه؛ فحينما جاءت الخادمة في صباح ذلك اليوم لتفعل ما تفعل كل صباح سمعت صوت أنين مكتوم صادر من غرفة النوم في حين كان باب المنزل مفتوحاً على مصراعيه، وحين دخلت إلى الغرفة فوجئت بالسيدة بيرولدي موثَقة اليدين مقيَّدة القدمين مغلولة الفم، في حين كان زوجها السيد بيرولدي مطروحاً فوق السرير وقد طُعن بخنجر حادّ في قلبه ولوَّثت دماؤه ملابسَه وفراشه.

وفي التحقيق كانت أقوال زوجته بسيطة ومباشرة؛ قالت: استيقظت في الليل ففوجئت برجلين مقنَّعَين ملتحيَين أمراني بالصمت التام، ثم أمرا زوجي بالبوح بسرّ ما،وأظنه ذلك السرّ الذي أفضت إليه به تلك الجمعية السياسية، وبالطبع رفض زوجي أن يبوح إليهما بذلك السر؛ فقاما بتقييدي وتكميمي ثم قتلا زوجي بطعنة خنجر نفذت من صدره إلى قلبه. وبعد ذلك سرقا مفاتيحه من جيبه وفتحا خزانة البيت واستوليا على مجموعة أوراق كانت

فيها. ولم يمكنّي أن أتعرف على ملامحهما ولكنني على يقين من أنهما روسيّان.

أحدث ذلك الحادث ضجّة كبرى في الصحف وبين فئات المجتمعات على اختلافها، ولم يستطع رجال المباحث أن يعثروا على هذين الشخصين المقنَّعَين اللذين ورد ذكرهما في التحقيق. ثم بدأت تلك الضجّة في الاختفاء حين تمّ القبض على السيدة بيرولدي واتُّهمت بقتل زوجها السيد بيرولدي، وقد أثارت تلك المحاكمةُ اهتمامَ جميع الأوساط الاجتماعية. ومما ضاعف من اهتمام المجتمعات بتلك القضية أن الزوجة كانت شابة وجميلة، كما أنه كان هناك الكثير من الغموض الذي يحيط بمولدها.

وبالضغط على المليونير الأمريكي اعترف بأن السيدة بيرولدي ابنة لأسرة من تجّار الفاكهة في مدينة ليون، كما أن الإشاعة التي انتشرت حول تلك الجمعية السياسية السرّية والسرّ الخطير الذي كان لدى زوجها والرجلَين المسلَّحَين، كل ذلك لم يكن إلاّ من خيالها، وقد قامت بذلك حتى تتخلّص من زوجها لتتزوّج المليونير الأمريكي. وبالرغم من كل تلك الحقائق التي تم كشف الستار عنها إلاّ أنها ظلّت على موقفها وأقوالها الخاصة بكيفية وقوع الجريمة على أيدي مسلَّحَين مقنَّعَين وأنها من أصل روسي عريق. وقد قالت إن تاجر الفاكهة الذي قال إنه أبوها لم يكن إلاّ الرجل الذي طلب أبوها منه أن يقوم بتربيتها.

ولكن رغم كل هذا الإنكار استطاع المدّعي العام إثبات التهمة عليها وعلى شريكها المحامي الشاب المدعو جورج كونو الذي كان قد استطاع الهروب قبل إلقاء القبض عليه. وقد دلّت التحقيقات بعد ذلك على أن تلك القيود التي ادّعت السيدة

بيرولدي أن المقنّعين كانا قد قيّداها بها كانت قيوداً ليّنة يمكن التخلص منها بسهولة.

وقُبَيل موعد المحاكمة وصل خطاب للمدّعي العام من المحامي الهارب جورج كونو كتب فيه اعترافه الكامل بكل تفصيلات الجريمة التي اشترك فيها مع السيدة بيرولدي زوجة المجني عليه. وقد قال في الاعتراف إنه هو الذي خطّط للجريمة مع السيدة بيرولدي لأنه كان يظن أن زوجها كان قاسياً في معاملته معها، وقد اندفع بسبب حبه الشديد لها (وكان يظنه حبّاً متبادَلاً) إلى إعداد خطة لقتل ذلك الزوج القاسي ثم الزواج بالمرأة. ولكنه فوجئ بعد ارتكاب الجريمة بأن الزوجة قد خدعته وجعلته يشاركها في تلك الجريمة لتتخلّص منه ومن زوجها في نفس الوقت من أجل الزواج بذلك المليونير الأمريكي المدعو هيرام تراب.

وفي نهاية اعترافه قال جورج كونو إنه كان يُعَدّ مخلب القط في تلك الجريمة، وهو لم يرتكبها إلاّ تحت تأثير تلك الزوجة القاتلة. ولم يكن من السيدة بيرولدي أمام ذلك الاعتراف الواضح الصريح إلاّ أن انهارت واستسلمت واعترفت بجريمتها قائلة إن المحامي الشاب جورج كونو هو الذي قام بالجريمة وحده بدافع حبّه الشديد لها وبسبب غيرته الشديدة من زوجها. وبعد ارتكابه الجريمة طلب منها التزام الصمت التام حتى لا يقتلها هي الأخرى، فلم تستطع إلاّ الخضوع لأوامره بسبب خوفها على حياتها.

وكان لما لها من جمال وبراعة تأثيرٌ كبير على هيئة المحلّفين، فاستطاعت أن تقنعهم بأنها أخطأت حقاً في إقامة علاقة بشخص غير زوجها ولكن خطأها لم يتجاوز ذلك الحدّ. وقد صدّق المحلّفون أقوالها وأصدروا قرارهم بإدانة المحامي الشاب الهارب

جورج كونو. وبالرغم مما بذلته الشرطة من جهود كبيرة إلاّ أنها عجزت تماماً عن القبض على المجرم الهارب. ولم تلبث السيدة بيرولدي أن اختفت بدورها عن باريس لتعيش مع ابنتها الوحيدة في مكان آخر تحت اسم آخر!

* * *

الفصل السابع عشر

بعد أن تذكّرت قضية بيرولدي (أو السيدة دوبريل كما أسمت نفسها في ميرلنفيل) قلت لبوارو: الآن فقط فهمتُ كل شيء يا صديقي العزيز.

فسألني مبتسماً: وما الذي فهمته أيها العبقري؟

فقلت بثقة: ما فهمته هو أن السيدة دوبريل هي القاتلة الحقيقية للسيد رينولد؛ فالجريمتان متشابهتان تماماً.

- إذن فأنت تقول بأن السيدة بيرولدي (أعني السيدة دوبريل) هي التي قامت بارتكاب الجريمة الأولى وحصلت خطأ على البراءة.

فقلت بثقة متزايدة: بالطبع يا بوارو، ألا ترى معي هذا؟

فهزّ كتفيه قائلاً: السيدة دوبريل لم تقُم بارتكاب الجريمة الأولى فعلاً، أقصد أنها لم تقُم بطعن زوجها بخنجر.

فقلت بلهجة الواثق: ولكنني على ثقة من أنها قامت بالجريمة الثانية بنفسها.

فسالني: وما الدليل على هذا يا عزيزي؟

فقلت مندفعاً: الدليل هو... هو...

ثم توقّفت عن الحديث وأنا في حيرة من أمري ولم أتمّ العبارة. كان سؤاله منطقياً جداً؛ فما هو الدليل على أن السيدة دوبريل هي التي قامت بالقتل في الجريمة الثانية؟ وما الدافع لها على أن تقوم بمثل تلك الجريمة؟ الجرائم لا تُرتكَب هكذا هباء ولا بدّ أن يكون هناك حافز أو دافع قوي يجعل المرء يرتكب جريمة قتل، إلاّ إذا كان القاتل مجنوناً مختلاً عقلياً. وفي هذه القضية إذا نظرنا إلى الحافز لوجدناه حافزاً منعكساً، أي أن السيدة دوبريل كان من مصلحتها أن يظلّ السيد رينولد على قيد الحياة؛ فقد كانت تحصل على فائدة مادّية عظيمة من ورائه.

ولم أستطِع في النهاية إلاّ أن أقول: مهما كان الأمر فليس المال هو الحافز الوحيد للقتل.

فقال بوارو تأكيداً على قولي: بالطبع يا صديقي، فهناك الحافز العاطفي والانتقامي، وهناك جرائم الانحراف العقلي والاجتماعي، ولكن النوعَين الأخيرَين لا ينطبقان على قضيتنا.

فقلت له متسائلاً: هل من الممكن أن تكون السيدة دوبريل قد قامت بقتل السيد رينولد في ساعة غضب أو انفعال عاطفي أو في لحظة غيرة أو خوف على مستقبلها مع السيد رينولد إذا كانت عاطفته قد فترت نحوها؟

فقال بوارو وهو يهزّ كتفيه: من الممكن أن يكون قولك صحيحاً، ولكن حفر القبر يحتاج إلى قوّة نادراً ما تتوفّر في النساء، مما يشير إلى أنه كان هناك شريك لها في الجريمة.

فهززت كتفيّ بدوري وأنا أقول: ولِمَ لا؟ ربما كان لها

بالفعل شريك في تلك الجريمة قام بمساعدتها على حفر القبر أو غير ذلك.

فقال بوارو وهو يهزّ رأسه: حسناً، فلنترك هذا الأمر الآن لننتقل إلى نقطة أخرى في القضية. قلتَ لي إن هناك تشابهاً بين الجريمتَين وعلى هذا الأساس اتهمت السيدة دوبريل بارتكاب الجريمة الثانية، فما وجه التشابه الذي تراه بين الجريمتَين؟

فهتفت بدهشة: التشابه واضح يا بوارو! فهناك الرجلان المقنَّعان الملتحيان، وهناك موضوع السرّ الذي كانا يريدان معرفته، ولكن...

- ولكن التي قالت ذلك هي السيدة رينولد وليست السيدة دوبريل!

فعدت أفكّر برهة ثم قلت: ربما كانت السيدتان رينولد ودوبريل شريكتين في الجريمة.

فقال بوارو وهو يهزّ رأسه نفياً: هذا احتمال بعيد يا عزيزي، وليس هناك من دليل على كونه حقيقياً كما أنه لا يوجد ما يبرّره. على أية حال نحن نقترب الآن كثيراً من الحقيقة.

فقلت له بلهفة: ماذا تقصد يا بوارو؟ هل وصلت إلى شيء؟

- بالطبع يا صديقي العزيز؛ لقد أدركت السبب الذي جعل السيد رينولد يرسل في استدعائي.

فسألته: وهل عرفت القتَلة؟

فقال: لقد عرفت واحداً منهم، وأنا في طريقي لمعرفة الباقين.

فقلت بلهفة وفضول: من هذا الذي عرفته؟

فقال وهو غارق في التفكير: لا يمكنني أن أخبرك باسمه الآن، ولكن يكفي أن أقول إنني أدركت سرّ الجريمة الأولى، أما الجريمة الثانية (أعني اكتشاف الجثة الثانية) فما زال يشوبها بعض الغموض.

فقلت متسائلاً: ولكنك قلت من قبل إن الجثة التي وُجدت في الكشك هي لرجل مات ميتة طبيعية.

فقال وهو يبتسم: ربما كانت هناك جريمة دون مجرم، ولكن في حال وجود جريمتَين فإنه ينبغي أن توجد جثّتان.

فقلت بحيرة شديدة: ماذا تقصد؟ أنا لا أفهم شيئاً!

فوجدته في ذلك الوقت ينظر من خلال النافذة وهو يقول: ها هو قد أقبل.

- من هذا الذي أقبل؟

- جاك رينولد يا عزيزي، لقد بعثت إليه لأقابله هنا.

وتذكّرت في تلك اللحظة ذلك الحديث الذي كان قد دار بيني وبين رئيس الحمّالين فخطر ببالي أن أفاجئ بوارو بتلك المعلومات الجديدة فقلت له: عندي لك معلومات جديدة يا عزيزي. هل تعلم أن جاك رينولد كان في ميرلنفيل ساعة وقوع الجريمة، أي أنه لم يكن في شيربورغ كما سبق وادّعى؟

وكانت دهشتي شديدة وأنا أرى بوارو يبتسم قائلاً: نعم يا عزيزي، لقد عرفت ذلك من نفس المصدر الذي عرفته منه، رئيس الحمّالين. ولا بدّ أن صديقنا غيرود قد أدرك هذه الحقيقة أيضاً من نفس المصدر.

فقلت له متسائلاً: هل تظن أن جاك رينولد هو الذي... لا، لا أظنه هو، هذا مستحيل!

وعندئذ أقبل جاك وتبادل معنا التحيّة، ثم جلس معنا فقال له بوارو: لقد طلبت مقابلتك هنا يا سيد رينولد لأن الفيلاّ ليست بالمكان الملائم لمثل هذه المقابلة، لا سيّما وأن الأمور بيني وبين المفتش غيرود ليست كما ينبغي، ولهذا فأنا لا أريد أن أقدّم له بعض الحقائق التي اهتديت إليها.

فقال جاك بلهجة مهذّبة: هذا حقك بالطبع يا سيد بوارو.

فقال له بوارو: هل أستطيع إذن أن أطلب منك خدمة يسيرة؟

فأجابه: بالطبع يا سيد بوارو، أنا طوع أمرك.

فاقترب بوارو منه وهو يقول: أريدك أن تستقلّ القطار إلى بلدة آبالاك وتسأل في قسم الودائع عن وديعة على هيئة حقيبة تركها هناك شخصان أجنبيان ليلة الجريمة، وأظن أن ناظر المحطة سيتذكّر أمر هذه الحقيبة. هل يمكن أن تفعل هذا من أجلي؟

فقال جاك رينولد: بالطبع يا سيد بوارو، بالطبع.

فقال بوارو مكملاً مطلبه: أرجو أن تقوم بهذه العملية الآن، أعني أن تذهب مباشرة من هنا إلى المحطة دون الذهاب إلى الفيلاّ

لئلاّ يعرف غيرود بأمر هذه المهمة.

فنهض جاك رينولد واقفاً وهو يقول: سأذهب إلى المحطة مباشرة.

فقال بوارو وهو يستوقفه: هناك سؤال أخير يا سيد جاك. لماذا لم تقُل للسيد هوتيت إنك كنت في المدينة ليلة الحادث؟

فقال الشاب بلهجة متلعثمة وقد تصبّب وجهه عرقاً: لقد... لقد كنت في ميناء شيربورغ و...

فنظر بوارو في عينيه نظرة ثاقبة وهو يقول: ولكن عمّال المحطة رأوك تصل إلى المدينة في تلك الليلة في قطار الحادية عشرة والنصف.

فصمت جاك برهة ثم قال بعصبية: وما معنى أني كنت هنا؟ هل يعني هذا أنني قتلت أبي؟

فهزّ بوارو كتفيه وهو يقول: أريد فقط أن أعرف لماذا لم تخبر المحقق بهذا.

فقال جاك وقد تزايدت عصبيته: التفسير بسيط أيها المفتش؛ لقد عدت لتوديع حبيبتي مارثا دوبريل ولأخبرها أنني باقٍ على عهدنا مهما طال بي السفر.

- وهل قابلتها في تلك الليلة؟

- نعم يا سيدي، لقد تمت تلك المقابلة.

- وماذا حدث بعد مقابلتكما؟

- بعد ذلك رجعت إلى المحطة لأجد القطار قد غادرها

بالفعل، فذهبت إلى بلدة سانت بوفيز سيراً على الأقدام ثم طلبت من صاحب مرأب أن يوصلني بسيارة أجرة إلى مدينة شيربورغ.

فقال بوارو بدهشة: أتقصد أنك سرت على قدميك مسافة خمسة عشرة كيلومتراً حتى سانت بوفيز؟!

فأجاب جاك: نعم يا سيد بوارو.

فأومأ به بوارو برأسه، فانصرف جاك ليفعل ما طلبه منه بوارو في محطة آبالاك. ولم يكَد ينصرف حتى قام بوارو مسرعاً وهو يشير إليّ بالقيام وقال: هيا يا هيستنغز، هيا لنتبعه.

فمضينا وراءه على مسافة بعيدة فوجده بوارو يتّجه بالفعل نحو المحطة فقال: لقد نجحت الخدعة، وهو لن يجد هناك أية حقائب في تلك المحطة.

فقلت متسائلاً: هل كنت تريد فقط إبعاده لفترة ما؟

فأجابني بابتسامة عريضة: بالضبط يا عزيزي هيستنغز. يا لك من ذكي! هيا بنا الآن إلى الفيلاّ.

* * *

الفصل الثامن عشر

حين اقتربنا من الفيلاّ وجدت بوارو يتّجه نحو الكشك الذي كانت الجثة الثانية فيه، فتوقّف عند المقعد الحجَريّ الذي كان بالقرب من الكشك، وبعد فترة قصيرة من التفكير اتجه نحو خط الشجيرات الذي يفصل بين حديقة فيلاّ جنيفييف وحديقة فيلاّ مرغريت. وبعد هنيهة تفكير أخرى وجدته يزيح بعض أغصان الشجيرات جانباً وهو يقول: جميل أن أرى الآنسة مارثا دوبريل في حديقة الفيلاّ؛ أريد التحدّث معها وحدنا بدلاً من أن أذهب إليها من خلال الباب.

ثم نادى باسمها هامساً فوجدتها تأتي نحوه جرياً، فقال لها: هل تسمحين ببضع دقائق من وقتك يا آنستي؟

فقالت بتَرحاب: بالطبع يا سيدي، بالطبع.

وكان الخوف باقياً في عينيها حتى تلك اللحظة وهي تستمع إلى بوارو الذي قال لها: هل تذكرين ذلك اليوم الذي جريت ورائي فيه لتسأليني عن كوننا نشتبه في شخص ما أم لا؟

فقالت: نعم يا سيد بوارو، أذكره، وقد أخبرتني أن الاشتباه يدور حول اثنين من أمريكا الجنوبية.

فقال لها بوارو: حسناً يا آنستي، أرجو أن توجّهي إليّ السؤال مرة أخرى.

فقلت الفتاة بدهشة: ماذا تقصد يا سيد بوارو؟!

فقال موضحاً: لو أنك سألتِني نفس السؤال الآن لأخبرتك أن الاشتباه أصبح الآن يدور حول شخص آخر غير هذين الاثنين من أمريكا الجنوبية.

فقالت بصوت خافت خائف: من؟

فقال بوارو وهو ينظر إلى عينيها: السيد جاك رينولد.

فهتفت بفزع شديد: كلا، مستحيل، مستحيل! من يمكن أن يشتبه في جاك؟!

فقال بوارو باستخفاف: المفتش غيرود.

فقالت والخوف يتزايد في نبراتها: هذا الرجل قاس غليظ القلب. يا إلهي ما أشدّ خوفي! ولكن... ولكن...

وفجأة وجدت التصميم يرتسم على ملامحها، فظننتها تتمتّع بروح نضالية لا يمكن هزيمتها في حين قال لها بوارو: بالطبع أنت تعرفين أن جاك كان هنا في المدينة ليلة الجريمة، أليس كذلك؟

- بلى، هو أخبرني بهذا.

فقال بوارو: لم يكن عليه إخفاء هذه الحقيقية عن هيئة التحقيق، لم يكن هذا من الحكمة في شيء.

فقالت الفتاة وهي تطلق زفرة قوية: أعلم هذا، ولكننا لن نضيع الوقت في ندم لا طائل منه. علينا العمل على إنقاذ جاك.

جاك بريء بلا شك، ولكن المفتش غيرود بمكانته وشهرته عليه أن يقبض على أحد، وأظنه لهذا قرّر القبض على جاك.

فقال بوارو: هل علمت أن الأدلة كلّها ضد جاك؟

فقالت الفتاة بجرأة عجيبة لم أكن أظنها من صفاتها: أنا لست طفلة صغيرة يا سيد بوارو، وأنا أعرف أن جاك بريء مهما كانت تلك الأدلّة التي تتحدّث عنها ولا بدّ من تفنيد تلك الأدلة جميعاً.

نظر إليها بوارو نظرة قوية وهو يقول: هل يمكنك أن تخبريني لماذا أشعر أنك تخفين عنّا شيئاً ما؟

فهزّت رأسها بارتباك وقالت: نعم يا سيدي، أنا بالفعل أخفي شيئاً ما، ولست أدري إن كنتَ ستصدّق هذا أم لا.

فقال مبتسماً: أخبرينا أيّاً كان ردّ الفعل.

فقالت الفتاة: حينما استدعاني المفتش غيرود لأتعرّف على تلك الجثة الثانية التي وجدوها في الكشك أخبرته أنني لا أعرف صاحبها، ولكنني بعد ذلك تذكّرت أني رأيته من قبل وهو على قيد الحياة.

سألها بوارو باهتمام متزايد: أين حدث هذا؟ ومتى حدث؟

فقالت: صباح اليوم الذي قُتل فيه السيد رينولد كنت أسير في هذه الحديقة، أقصد أن السيد رينولد كان لا يزال على قيد الحياة في ذلك الصباح، وفي ذلك الوقت سمعت صوت شجار جعلني أزيح بعض أغصان الشجيرات التي تفصل بين الفيلّتين، فإذا بي أجد السيد رينولد في شجار بصوت مرتفع مع صعلوك

يرتدي ملابس رثّة. كان ذلك الصعلوك يتوسّل إليه حيناً ويهدّده حيناً، وقد فهمت من حديثهما أنه يطلب من السيد رينولد بعضاً من المال. ثم نادتني أمّي في ذلك الوقت فذهبت إليها. صدّقني يا سيد بوارو، أنا واثقة من أن ذلك الرجل رثّ الملابس هو القتيل الثاني الذي عُثر على جثّته في الكشك.

فسألها بوارو بهدوء: ولماذا لم تخبرينا بهذا يا آنسة؟

فقالت تبرّر ما فعلته: أنا في الحقيقة لم أتعرّف عليه في البداية؛ لقد كانت ملابسه أنيقة باهظة الثمن، ولكنني تذكّرت ملامحه فيما بعد.

وفي تلك اللحظة سمعنا صوت أمّها تناديها، فاستدارت الفتاة قائلة: هذه أمّي تناديني وعليّ الإسراع إليها.

وعقب انصرافها أمسك بوارو ذراعي وهو يقول: هيا بنا إلى الفيلاّ الآن، أسرع.

فقلت أسأله عن الفتاة: ما رأيك في أقوالها؟ هل تراها صادقة أم أن هذا مجرّد محاولة لإبعاد الشبهات عن جاك؟

فقال: أنا على يقين من أنها صادقة، ولكن أقوالها أثبتت لي كذب جاك مرة أخرى. هل تذكر حين أخبرَنا أنه رأى مارثا ليلة الحادث بعد أن تردّد في قوله؟ كنت أشك في قوله في ذلك الوقت، والآن وبعد أن سألت مارثا تأكّدت من أنه كاذب. لقد قالت إنها كانت تعلم أنه في البلدة لأنه أخبرها بذلك، ومعنى هذا أنها لم تَرَه في تلك الليلة بل أخبرها فقط أنه كان موجوداً. السؤال الآن هو: إذا لم يكن جاك قد عاد ليرى مارثا دوبريل في تلك الليلة فلماذا عاد؟

فقلت بدهشة عظيمة: هل تظنه عاد لقتل أبيه؟!

فردّ بوارو مبتسماً: لا تغلبنّك العاطفة يا عزيزي هيستنغز. كم رأينا أمّهات يقتلك أبناءهن للحصول على مبالغ التأمين، ولهذا فلا يمكن أن تستنكر شيئاً مهما يكن.

- ولكن ما الدافع يا بوارو؟

- إنه المال بالطبع يا عزيزي. ولا تنسَ أن جاك كان يعتقد حتى آخر لحظة أن له من الميراث نصف ثروة أبيه.

فسألته بحيرة: وما دور ذلك الصعلوك صاحب الجثة الثانية في تلك الجريمة؟ ولماذا قُتل؟!

فقال بوارو وهو يهزّ كتفيه: سيخبرك غيرود أنه كان مساعداً لجاك في الجريمة، وبعد ذلك قتله جاك ضماناً لسكوته.

فسألته قائلاً: وماذا عن تلك الشعرة النسائية التي وُجدت حول مقبض الخنجر؟

- لن يسلّم غيرود بأنها من رأس امرأة؛ فبعض الشبان يقومون بتطويل شعرهم بشكل كبير، وسيقول غيرود إن تلك الشعرة ليست بالضرورة من شعر امرأة.

فسألته: وهل هذا اعتقادك أنت أيضاً؟

فقال: بل هي شعرة نسائية، وأنا أعرف صاحبتها.

فسألته بلهفة: هل هي السيدة دوبريل؟

فقال بخبث: ربما، من يدري!

وحاولت تمالُك أعصابي وقلت له ونحن ندلف إلى بهو الفيلاّ: علامَ تنوي الآن؟

فقال مجيباً: أعزم على القيام بتفتيش دقيق لحاجيات جاك، ولهذا عملت على إبعاده عن المكان لمدّة ساعة أو أكثر قليلاً.

وأخذ بوارو يفتّش غرفة جاك بسرعة ودقّة وبراعة. ففتح جميع الأدراج وفتش جميع الملابس وياقاتها والجوارب وأردية النوم. وفجأة رأيت سيارة تقف أمام باب الفيلاّ فقلت لبوارو محذّراً: كفى يا بوارو؛ هناك سيارة تقف أمام باب الفيلاّ ينزل منها رجلان من رجال الشرطة والمفتش غيرود وجاك رينولد.

وهنا صاح بوارو بلهجة منتصرة وهو يدسّ ما يشبه الصورة الفوتوغرافية في جيبه: لقد وجدت بغيتي أخيراً.

ثم اتجهنا نحو البهو حيث التقينا بغيرود الذي كان ينظر نحو أسيره جاك مفكّراً فقال له بوارو: طاب صباحك يا سيد غيرود. ما الأمر؟

فأشار غيرود نحو جاك برأسه وهو يقول: لقد ضبطناه وهو يحاول الهرب، ومن سوء حظّه أنني كنت أراقبه. أنا أقبض عليه بتهمة قتل والده السيد بول رينولد.

فاستدار بوارو نحو جاك الذي كان يرتكن في وقفته إلى الباب وقد أصبح وجهه شاحباً يحاكي وجوه الموتى فقال له بوارو: ما قولك في هذا يا سيد جاك؟

فقال جاك بصوت خالٍ من الانفعالات: لا شيء.

* * *

الفصل التاسع عشر

أصابتني دهشة عظيمة وأنا لا أصدّق ما أسمعه؛ فلم يكن ليخطر ببالي أن يكون القاتل هو جاك رينولد، ولكن منظره وهو يقف بتخاذل وقد شحب وجهه جعلني أوقن تماماً من أنه هو القاتل. وفجأة سمعت بوارو يقول للمفتش غيرود وهو يستدير نحوه: ما أساس اتهامك لهذا الشاب يا سيد غيرود؟

فقال غيرود باستخفاف: وهل تتوقّع أن أخبرك بأدلّتي؟!

فقال بوارو بهدوء: نعم، أتوقّع هذا، على سبيل المجاملة.

فتردّد المفتش برهة ثم قال بلهجة تحدّ: هل تظنني مخطئاً في قبضي عليه؟

فقال بوارو باسترخاء: ربما.

فحسم غيرود أمره وقال: فليكن. تعالَ لأخبرك وسوف تحكُم بنفسك.

ثم اتجه ونحن وراءه إلى غرفة الاستقبال تاركين جاك في حراسة الشرطيّين. واستقرّ بنا المقام في الغرفة فقال غيرود بهلجة ملؤها السخرية: استعدّ يا سيد بوارو؛ سوف ألقي عليك محاضرة مفيدة لك في فن البحث الجنائي المتطوّر.

فابتسم بوارو وهو يومئ برأسه في حين قال المفتش غيرود مكملاً: كنت أعلم منذ البداية أن حكاية الأجنبيّين اللذين قدما من تشيلي مجرّد محاولة للتضليل، كما أن حفر القبر يحتاج إلى مجهود رجل، ولكنني لم أجد شخصاً يمكن أن يستفيد من مقتل السيد رينولد إلاّ شخصاً واحداً كان يظن أنه سيستفيد من مقتله، ونحن جميعاً سمعنا عن تلك المشاجرة التي وقعت بين جاك وأبيه رينولد، كما سمعنا عن تلك التهديدات التي قالها جاك لأبيه وسمعنا عن قوله له إنه يتمنّى موته. وقد ثبت لنا جميعاً أن الابن كان في ميرلنفيل ليلة وقوع الحادث في حين أن السيد جاك نفسه أخفى هذه الحقيقة عن المحقق، وقد حوّل هذا الإخفاء الشك بداخلي إلى يقين. بعد ذلك عثرنا على جثة أخرى مطعونة في القلب باستخدام نفس الخنجر الذي قُتل به السيد رينولد، ونحن نعلم موعد سرقة ذلك الخنجر والكابتن هيستنغز هنا ويمكنه تحديد وقت سرقة الخنجر، كما أن جاك رينولد كان الوحيد الذي يستطيع العودة من شيربورغ ودخول الكوخ وسرقة الخنجر دون إثارة أيّ شك من أيّ شخص و...

فقال بوارو مقاطعاً غيرود: ولكن هناك شخصاً آخر يمكن أن يكون هو الذي سرق الخنجر.

- أتقصد السيد ستونر السكرتير الخاص بالسيد رينولد؟ لا يمكن أن يكون هو؛ لقد وصل إلى مدخل الفيلاّ من المدخل مباشرة في سيارة أجرة أقلّته من ميناء كاليه. ثِق فيما أقول يا سيد بوارو؛ لقد تحرّيت عن كل شيء.

ثم اعتدل في جلسته وهو يقول: لقد وصل القطار الذي استقلّه جاك إلى المدينة، وقد مضت ساعة كاملة بين وصول القطار

وظهور جاك بيننا في غرفة الاستقبال التي نحن فيها الآن، ومما لا شك فيه أنه رأى الكابتن هيستنغز حينما كان يغادر الكوخ مع تلك الآنسة التي أخبرنا عنها الكابتن هيستنغز فدخل إلى الكشك وسرق الخنجر ليقتل به شريكه في الجريمة، وبعد ذلك قام بإخفاء الجثة في الكشك.

فقال بوارو بلهجة ساخرة: هل تقصد ذلك الرجل الذي كان قد مات ميتة طبيعية قبل أن يُطعن بالخنجر؟

فقال المفتش وهو يهزّ كتفيه: أظنه لم يكن يعرف أن الرجل لم يكن قد مات بالفعل، وربما كان الرجل في الكشك بالفعل في ذلك الوقت، وبعد أن مات دخل عليه جاك وطعنه دون أن يعرف أنه قد مات بالفعل ثم خرج مسرعاً. وأظنه كان واثقاً من أن تلك الجريمة الثانية تكفي لتضليل العدالة عن القاتل الحقيقي.

فقال بوارو بلهجة مسرحية: ولكنه قد نسي بالتأكيد أنه لم يكن ليستطيع تضليل السيد غيرود العظيم!

فقال غيرود بحنق: أنت تسخر منّي يا سيد بوارو، ولكني سأقدّم لك الدليل الدامغ على أن السيدة رينولد كانت تكذب علينا في أقوالها عن الجريمة. نحن نعرف بالطبع أنها كانت تحبّ زوجها ولكنها كذبت للتستّر على القاتل، فمن تظنون أنها تتستّر في هذه الجريمة من أجله؟ ربما تتستّر المرأة على نفسها وربما تتستّر على حبيبها، ولكن مع ابنها فإنها بالتأكيد سوف تتستّر، وهذا هو الدليل الذي لا يمكن أن يُنقَض.

ثم أطلق زفرة انتصار وهو يقول: هذه أدلّتي يا سيد بوارو، فما رأيك؟

فقال بوارو بهدوء: أرى أنك نسيت شيئاً واحداً.

فقال غيرود بتحدّ: ما هذا الشيء؟

فقال بوارو موضحاً: كان السيد جاك رينولد يعلم بأن ملعب الغولف لم يكن قد اكتمل تجهيزه بعد، فلماذا يقوم بحفر قبر لأبيه فيه مما يؤدّي إلى كشف الجثة عند استكمال الإعداد؟ وأنت تعلم أن ملاعب الغولف يتمّ فيها حفر عدد كبير من الحفر الخاصة باللعبة.

فقال المفتش غيرود وهو يضحك: لقد كان هذا متعمَّداً يا سيد بوارو؛ فالسيد جاك لم يكن ليرث نصيبه دون أن تظهر الجثة حتى تثبت الوفاة.

فقال بوارو وقد برقت عيناه: لماذا إذن يدفن الجثة أصلاً؟! فكّرْ قليلاً في هذه النقطة يا سيد غيرود.

هزّ غيرود كتفيه دون أن يجيب، فاتجهنا نحو البهو وهو يتبعنا، وفي أثناء ذلك قال لي بوارو هامساً: ما رأيك في أنبوب الرصاص؟

وفي تلك اللحظة كانت السيدة رينولد تهبط الدرَج بسرعة هاتفة وقد رأت ابنها مقبوضاً عليه: جاك! ما معنى هذا؟

فقال جاك: لقد ألقوا القبض عليّ يا أمّي.

فأطلقت السيدة رينولد صرخة ملتاعة وهي تسقط على الأرض بعد اصطدام رأسها بحاجز الدرَج، فجرينا جميعاً نحوها ثم قال بوارو بعد فحص سريع لها: ربما أصيبت بارتجاج في المخ، وإذا كان حضرة المفتش غيرود يريد استجوابها فإن عليه الانتظار

لمدة أسبوع على أقل تقدير.

وتركنا السيدة رينولد مع الخادمتَين فرانسواز ودينيس، ثم خرجت مع بوارو الذي كان يسير بجانبي مفكراً صامتاً مقطّب الجبين، ثم تجرّأت أخيراً وسألته: هل ترى جاك غير مذنب رغم كل ما قاله المفتش؟

فظلّ صمت بوارو طويلاً ثم ردّ: حقيقةً لست أدري يا هيستنغز. هناك احتمال ضئيل جداً في أن يكون جاك هو القاتل، وإن كان هو القاتل فلن يكون الدليل على ذلك شيئاً مما قاله غيرود، بل إن المفتش غيرود مخطئ تماماً في كل أدلّته، ويمكنني أن أقول لك إن أشدّ أدلّته عبارة عن خطأ أعرفه وأتوقّع أن يخطئ فيه البعض.

فقلت بفضول: وما هذا الخطأ؟

فقال: لو أنك حاولت تحريك ذهنك لعرفت ما أعنيه سريعاً.

واتجهنا معاً نحو البحر ثم قعدنا هناك على مقعد حَجَريّ وأنا أُعمِل ذهني جاهداً لمعرفة ذلك الدليل الخطأ الذي كان بين أدلة غيرود، وفجأة أضاء جزء ما في عقلي فوجدت نفسي أقول: لقد غفل المفتش غيرود عن شيء هام جداً.

فسألني بوارو مبتسماً: وما هذا الشيء يا عزيزي؟

فقلت بحماس وثقة: أقصد السيد جورج كونو، ذلك المتهم الهارب في قضية بيرولدي.

* * *

الفصل العشرون

عانقني بوارو بإعجاب وسعادة شديدَين وهو يقول: أنت عبقري يا صديقي هيستنغز؛ لقد وصلت وحدك إلى طرف الخيط وعليك الآن إكمال استنتاجاتك. أنت على حق في هذا كلّه، وقد كنّا جميعاً على خطأ بنسياننا ذلك المجرم الهارب جورج كونو.

فسعدت جداً بإعجاب بوارو بقدرتي على التفكير والاستنتاج فقلت مستطرداً: رغم مرور عشرين عاماً على هروب ذلك المجرم إلاّ أنه لا دليل هناك على موته خلال تلك الفترة. أي أن في مقدورنا أن نفترض وجوده على قيد الحياة.

- بالضبط.

- أو أن نفترض على الأقل أنه كان على قيد الحياة خلال الأيام السابقة.

- بالضبط يا عزيزي هيستنغز. يا لك من عبقري!

فقلت بحماس شديد: يمكننا أن نفترض أنه كان يعاني من الفقر والضياع، مما جعله يصبح مجرماً أو نصّاباً صعلوكاً، وحين أقبل إلى ميرلنفيل صُدفة رأى السيدة دوبريل، تلك المرأة التي كان أحبّها ولم يتوقّف عن حبّها طوال تلك المدّة.

فقال بوارو محذّراً: إنها العاطفة مرة أخرى يا عزيزي. كن على حذر في استنتاجك.

فقلت مؤكّداً على وجهة نظري: إنّ من يحبّ لا ينسى حبّه حتى وإن اعتقد في وقت ما أنه قد كره ذلك الحبيب، ومهما كان من أمر فذلك الرجل جورج كونو قد وجد تلك الحبيبة تعيش في ميرلنفيل باسم مستعار، ولكنه فوجئ بها وقد صارت صاحبة للمليونير السيد بول رينولد، فتذكّر جورج كونو آلامه وحياته الضائعة بسبب حبه لهذه المرأة فتشاجر مع رينولد ثم... ثم اختبأ له وانتظره حتى رآه يمضي متسلّلاً لمقابلة المرأة فطعنه بالخنجر في ظهره. وبعد أن قام بجريمته حفر له قبراً ليخفي فيه جثّته، وأنا أتخيّل أن السيدة دوبريل خرجت للبحث عن رينولد لتعلم سرّ تأخّره ففوجئت بجورج كونو وحدثت بينهما تلك المشاجرة العنيفة التي استطاع خلالها أن يجرّها إلى كشك الأدوات الزراعية حيث سقط في نوبة صرع. وبفرض بسيط يمكننا أن نقول إن السيدة دوبريل فوجئت بجاك في تلك اللحظة فأخبرته بما حدث وقالت له إن الأمر لو تم افتضاحه لساءت سمعة ابنتها التي يحبها جاك، ولهذا كان عليه إخفاء كل شيء، ولهذا وافقها الشاب ثم أخبر أمّه بالأمر وأقنعها بأن تعمل معه ومع السيدة دوبريل لإخفاء الأمر. وبهذا يكون الجزء الثاني من الخطة قد تمّ تنفيذه، ذلك الجزء الذي ذكرته السيدة دوبريل بشأن تكميم فمها وشدّ وثاقها.

وتراجعت في مقعدي بزهو شديد لثقتي في استنتاجاتي ثم قلت لبوارو: ما رأيك فيما قلته؟

فقال بلهجة هادئة: أظنك ستكون مؤلّفاً بارعاً للأفلام السينمائية.

فعقدت حاجبيّ قائلاً: هل تعني...؟

فقال مكملاً: أعني أن تلك القصة التي قصصتها عليّ تصلح لفيلم سينمائي رائع، ولكنها لا تصلح للحياة العادية المألوفة لأنها بعيدة عنها كل البعد.

فقلت: أنا لم أذكر التفصيلات ولكن...

فقال مقاطعاً: ولكن ماذا؟ ما قولك إذن في استبدال الملابس؟ هل قتل كونو السيد رينولد ثم استبدل معه ملابسه ثم عاد لوضع الخنجر في الجرح؟

فقلت مفكّراً: هذه مسألة بسيطة؛ فربما استطاع الحصول على تلك الملابس الفاخرة وبعض المال من السيدة دوبريل قُبيل ارتكابه الجريمة.

- وكيف حصل منها على تلك الملابس وذلك المال؟ ما الذي يجعلها توافق على ذلك؟

فقلت بثقة: التهديد يا صديقي، نعم؛ التهديد بكشف أمرها للسيد رينولد فيضيع كل أمل لها في زواج ابنتها من ابنه.

فقال بهدوء: هذا كله خطأ يا صديقي لأن السيدة دوبريل كان يمكنها إبلاغ الشرطة عن كونو الذي كان مطلوباً للمحاكمة بتهمة القتل، وكانت كلمة واحدة منها تكفي لإعدامه.

فهززت كتفي وقلت: هل أفهم من ذلك أن لديك تفسيراً تستطيع به سدّ كل هذه الثغرات؟

فقال بوارو بثقة: نظريتي هي الحقيقة الكاملة للجريمة، فهل تحب أن تعرفها؟

فقلت بفضول: بالتأكيد يا بوارو.

فاعتدل بوارو في جلسته وهو يقول: سأبدأ من حيث بدأتَ أنت، أعني منذ ظهر كونو على مسرح الأحداث بعد مرور عشرين عاماً على اختفائه. ثبت لنا عدم صحّة تلك القصة التي روتها السيدة بيرولدي (أعني السيدة دوبريل) فِي المحكمة عن الروسيَّين الغامضَين، أي أن تلك القصة كانت مختلَقة لتضليل العدالة وكان السيد جورج كونو هو الذي قام باختلاقها على حسب ما اعترفت به السيدة دوبريل في المحكمة بعد أن ظهرت الحقيقة. والآن فلنتتبع جريمة قتل السيد رينولد خطوة بخطوة.

ثم قام ليُحضِر مفكّرة وقلماً وهو يقول مكملاً: يمكننا البدء بتلك الرسالة التي وصلتني من السيد رينولد، ثم ننتقل بعد ذلك إلى التغيّرات النفسية التي أصابته في الأيام التي سبقت مقتله، تلك التغيرات التي شهد بحدوثها معظم الشهود، وبعد ذلك ننتقل إلى ما قيل عن تلك العلاقة بينه وبين السيدة دوبريل والمبالغ الكبيرة التي حصلت عليها منه. يمكننا من خلال هذه الخطوات المنظّمة الثابتة أن نصل إلى أحداث الثالث والعشرين من شهر مايو.

فقلت: فليكن، ابدأ.

فقال بوارو: في ذلك اليوم دبّت المشاجرة بين بول رينولد وولده بسبب رغبة الابن في الزواج من مارثا دوبريل، وسافر الابن في نفس اليوم إلى باريس، وفي اليوم التالي ٤٢ مايو كان بول رينولد قد كتب وصيّته وترك ثروته كلها لزوجته دون أن يترك لابنه شيئاً منها، وفي السابع من يونيو قامت مشاجرة بين بول رينولد ورجل أفّاق دخل الحديقة، وقد شاهدت الآنسة مارثا دوبريل تلك المشاجرة

من باب فيلّتها. بعد ذلك أرسل السيد رينولد خطاباً إليّ يطلب منّي فيه الحضور لحمايته من خطر وشيك، وفي نفس الوقت كان بول رينولد قد أرسل خطاباً لابنه ليطلب منه فيه السفر على السفينة أنزورا إلى بيونس آيرس، وفي ذلك اليوم أيضاً أعطى السيد رينولد سائقه الخاص ماستر إجازة طويلة. وفي تلك الليلة مساء السابع من يونيو زارته امرأة، تلك التي سمعته الخادمة ليونيه وهو يودّعها عند الباب الخارجي وهو يقول: نعم، نعم، ولكن أرجوك بحق الله أن تنصرفي الآن.

وتوقّف بوارو هنيهة عن حديثه ريثما يلتقط أنفاسه ثم استطرد قائلاً: هذه هي الحقائق التي بين أيدينا حتى الآن، وقد ذكرتها لك بالترتيب، فلم يبقَ أمامي غير ذلك الخطاب الغرامي الذي وُجد في جيب معطف القتيل.

- نعم، أذكره، ماذا عنه؟

- كنّا نعتبر ذلك الخطاب مُرسَلاً إلى السيد رينولد لأنه كان في جيب معطفه، ولكنني قمت بقياس المعطف الذي كان معلّقاً في بهو الفيلاّ عند وصوله جاك رينولد من شيربورغ مسرعاً.

- نعم، أذكر هذا.

- وهل تذكر أيضاً أن المعطف الذي كان يلبسه القتيل كان أطول مما ينبغي؟

- نعم، أذكر هذا تماماً.

- لقد دُهشت حين وجدت المعطف الذي كان جاك رينولد يرتديه أقصر مما ينبغي، فماذا تظن هذا يعني يا صديقي؟ لقد أثبتت

شهادة الشهود أن جاك خرج مسرعاً من مكتب أبيه ليلحق بالقطار الذاهب إلى باريس، وقد كان ذلك بعد المشاجرة التي تمّت بينه وبين أبيه مباشرة.

فقلت وقد انتبهت إلى مقصد بوارو: أنت تقصد أنه اختطف معطفاً معلَّقاً على المشجب الموجود في بهو الفيلاّ وانطلق به دون أن يفطن إلى أنه لم يكن معطفه هو بل كان معطف أبيه، فانطلق به تاركاً معطفه هو، أليس كذلك؟

- بالضبط يا هيستنغز، ويمكننا أن نقول إن السيد رينولد ارتدى معطف ابنه دون أن يفطن إلى ذلك عند خروجه من الفيلاّ، ويمكننا استناداً إلى هذا أن نقول إن تلك الرسالة التي وُجدت في ذلك المعطف لم تكن أساساً موجّهة إلى السيد بول رينولد بل كانت موجّهة إلى جاك رينولد الابن، ومعنى هذا أن تلك السيدة بيللا لم تكن حبيبة سابقة للسيد رينولد بل كانت حبيبة سابقة لابنه جاك.

فقلت والفضول يتعاظم في نفسي: عظيم، وماذا حدث بعد ذلك؟

- في يوم الحادث قام بول رينولد بإرسال خطابه إليّ في نفس الوقت الذي أبرق فيه لابنه جاك ليُبحِر إلى بيونس آيرس وفي نفس الوقت الذي منح فيه إجازة لسائق سيارته الذي يُدْعى ماستر، وكانت هذه الخطوات جميعاً قد اتخذها بول رينولد بعد مشاجرة عنيفة مع ذلك الصعلوك الأفّاق الذي قُلنا إنه جورج كونو.

- لماذا؟

- لأنه أدرك بعد المشاجرة (على فرض أن ذلك الصعلوك هو نفسه جورج كونو كما ذكرنا) أن هناك خطراً تتعرّض له حياته

وأن عليه العمل بسرعة لينجو من ذلك الخطر. فبدأ في إعداد الخطة اللازمة لذلك فأرسل لي الخطاب ولابنه البرقية لإبعاده عن المكان، كما منح ماستر سائق سيارته إجازة لأنه كان يخشى أن يكون جاسوساً عليه. لكن قبل أن نكمل هذه النقطة يجب علينا أن نعرف مَن هي تلك السيدة التي قامت بزيارته ليلة الجريمة؟

– هي بالتأكيد السيدة دوبريل؛ لقد أكّدت الخادمة فرانسواز هذه الحقيقة.

فقال بوارو وهو يهزّ رأسه: لا يا هيستنغز، لا تنسَ تلك القصاصة من الشيك والتي قرأنا عليها اسم دوفين، ولا تنسَ أيضاً أن السيد ستونر سكرتير السيد جاك قال إن هذا الاسم ليس غريباً عليه، وعلى هذا فإنه يمكنني القول إن كاتبة الرسالة الغرامية لجاك رينولد هي بيللا دوفين، وأظنها أقبلت إلى فيلاّ جنيفييف في تلك الليلة إما لترى جاك وتعرف سبب انقطاعه عن مراسلتها أو لتتحدّث مع أبيه لكي يقوم بدور الوسيط بينها وبين ابنه، ويمكن أن نقول إنه في تلك الليلة حاول السيد رينولد أن يرضيها بإعطائها شيكاً بمبلغ من المال فرفضت ذلك وقطعت الشيك وقالت إنها لم تحضر لطلب المال. بعد ذلك صحبها حتى الباب وهو يقول: "نعم، نعم، ولكن انصرفي الآن أرجوك ". وهذه العبارة تشير إلى حرصه على خروجها ليُتِمّ خطته في تلك الليلة قبل فوات الأوان اللازم لتنفيذها.

فسألته بدهشة: أيّ خطة تعني؟

فقال بوارو: سوف أذكر لك تفصيلاتها بالترتيب يا عزيزي. في البداية غادرت الفيلاّ في نحو العاشرة والنصف مساء، وبالاستناد

إلى أقوال الخدم وتلك الساعة التي وُجدت وقد انكسر زجاجها أقول إنه قد بدأ تنفيذ خطته في الثانية عشرة مساء لا الثانية بعد منتصف الليل حسبما أراد من رسم الخطة أن يوهمنا. وقد أثبتت شهادة الطبيب الشرعي أن ذلك الصعلوك كان قد مات قبل اكتشاف جثته بثمانٍ وأربعين ساعة، أي أن هذا كان قد حدث قبل يوم السابع من يونيو باثنتَي عشرة ساعة كاملة، أي أن هذا قد تمّ تقريباً في الصباح الباكر من يوم السابع من يونيو نفسه.

فقلت بدهشة: وكيف يمكنك تحديد ذلك الوقت؟ وعلى أيّ أساس؟!

فقال ببساطة: هذا هو الترتيب المنطقي للأحداث يا صديقي.

فقلت ولم تتركني دهشتي بعد: ماذا تعني بذلك الترتيب المنطقي للأحداث يا بوارو؟!

فقال بوارو يشرح وجهة نظره: فلنبدأ بأولى الحقائق التي بين أيدينا، أعني تلك التغيّرات النفسية التي ظهرت على بول رينولد قبل بضعة أسابيع من الجريمة. أرى أن هذه التغيّرات كانت ترجع إلى لقائه بالسيدة دوبريل سرّاً. والحقيقة الثانية هي مشاجرته مع ابنه جاك بسبب رغبة الابن في الزواج بمارثا دوبريل، وقد كان هذا أيضاً بسبب وجود السيدة دوبريل وابنتها في ذلك المكان. والحقيقة الثالثة هي أن السيد رينولد قد أرسل لي الخطاب في صباح يوم السابع من يونيو. نحن بالطبع لا نعرف السبب الحقيقي من وراء إرساله تلك الرسالة ولكن يمكننا استنتاج هذا السبب الآن. مَن في رأيك يا هيستنغز الذي خطط لهذه الجريمة ونفّذها؟

فأجبته: أعتقد أنه جورج كونو.

فقال بوارو مشيراً بيده: ليكن، سنفترض أنه هو جورج كونو. لقد سمعتَ معي المفتش غيرود وهو يقول إن المرأة يمكن أن تتستّر على أشخاص ثلاثة، إما على نفسها أو على حبيبها أو على ابنها، وإذا كان كونو هو الذي خطط للجريمة الأولى (جريمة بيرولدي) ونفّذها، وما دمنا نعرف أن كونو ليس جاك رينولد، فمعنى هذا أن السيدة رينولد لم تتستّر على نفسها ولم تتستّر على ابنها، بل تستّرت على حبيبها الذي هو كونو الذي قام بتدبير الجريمة الثانية على نمط الجريمة الأولى. هل توافقني على هذا؟

فقلت بثقة: بالطبع يا عزيزي.

فقال يسألني: إذن فمَن كونو؟

فقلت بسرعة: هو ذلك الصعلوك الأفّاق.

- وهل لدينا من دليل على أن السيدة رينولد كانت تبادل ذلك الصعلوك الأفّاق الحب؟

فقلت بحيرة: لا، ولكن...

فقال بوارو وهو يشير بكفّه: ليست هناك ضرورة للبحث عن نظريات لا تقوم على حقائق ثابتة يا عزيزي هيستنغز. يمكنك في البداية أن تسأل نفسك سؤالاً هامّاً: مَن هو الشخص الذي تحبّه السيدة رينولد؟ من هو الشخص الذي سقطت مغشياً عليها حزناً عندما رأت جثّته؟

فقلت بحذر: هل تقصد زوجها؟

فقال بوارو: نعم يا عزيزي، زوجها... وبعبارة آخرى جورج كونو.

فأصابتني دهشة كبيرة وهتفت قائلاً: مستحيل! هل تقصد أن جورج كونو هو نفسه بول رينولد؟!

فقال بوارو ببساطة: ما وجه الاستحالة يا عزيزي؟ ألم تعرف معي أن السيدة دوبريل كانت تقوم بابتزاز السيد رينولد في أمواله؟

- بلى.

- لماذا كانت تبتزّه إذن؟ بالتأكيد لأنها عرفت حقيقته.

فقلت وقد بدأت أتفهّم: هذا معقول جداً.

فاستطرد بوارو قائلاً: كما أنه لا أحد يعرف شيئاً عن طفولة بول رينولد ولا شبابه؛ لقد ظهر فجأة في أمريكا الجنوبية منذ نحو اثنتين وعشرين سنة وهو يزعم أنه من أصل كندي فرنسي.

فقلت وقد تنبّهت إلى شيء ما: نعم، نعم يا بوارو، ولكن أظنك غفلت عن نقطة هامّة.

فقعد بوارو حاجبيه وهو يقول: وما هذه النقطة يا هيستنغز؟

فقلت له موضحاً: إذا سلّمنا بأن جورج كونو هو الذي دبّر أمر هذه الجريمة فمعنى هذا أنه قد دبّر أمر قتل نفسه!

فارتسمت ابتسامة واسعة على شفتَي بوارو وهو يقول: هذا بالفعل ما كان يهدف إليه يا عزيزي.

* * *

الفصل الحادي والعشرين

قال بوارو مفسّراً لي ما يقوله: ربما كان الأمر عجيباً في نظرك؛ فالإنسان لن يدبّر جريمة لقتل نفسه، ولكن ذلك العجب يمكن أن يختفي إذا عرفت أنه لم يكن ينوي قتل نفسه بالفعل بل كان ينوي أن يوحي للبعض بأنه قد مات.

فهززت رأسي بغير تصديق لما يقول فأكمل قائلاً: كان القصد ألاّ يقوم بالجريمة بالفعل، بل كان يريد الحصول على جثة تبدو أمام العالم كأنها جثة رينولد، أي كونو، وذلك لأن كونو كان هارباً من العدالة في كندا. وهناك اتخذ اسماً مستعاراً ثم تزوّج وسافر إلى أمريكا الجنوبية التي جمع فيها ثروته الطائلة. ولكن حنينه إلى وطنه جعله يعود إليه بعد عشرين عاماً وهو مطمئن إلى أن هناك تغييراً كبيراً قد طرأ على شكله يجعل من المستحيل أن يتعرّف عليه أحد هناك.

ثم التقط بوارو أنفاسه وهو يقول: وبعد استقراره في إنكلترا قرّر أن يقضي الصيف في فرنسا، ولكن العدالة الإلهية التي لا تغفل جعلته يقضي ذلك الموسم في مصيف ميرلنفيل الذي كانت تقيم فيه السيدة دوبريل، أو بيرولدي، وقد كان من الطبيعي أن تكشف السيدة دوبريل شخصيته من النظرة الأولى. وبعد أن علمت

بثرائه الطائل شعرت أنها قد عثرت على كنز أو يمكنها أن تستغلّه إلى أقصى حدّ، ولم يستطع رينولد أن يفعل شيئاً إلاّ الاستسلام لمطالبها خوف كشف أمره فراح يعطيها كل ما تطلبه من أموال.

وصمت بوارو برهة ثم قال مكملاً تحليله: بعد ذلك تدخّلت الأقدار مرة ثانية فجعلت جاك رينولد يحب مارثا دوبريل ويقرّر الزواج بها، مما جعل أباه يثور عليه ويقرّر عدم إتمام هذا الزواج. بالطبع لم يكن جاك يعرف شيئاً عن ماضي أبيه، ولكن السيدة رينولد كانت تعرف كل شيء عن زوجها، كما أن هذه السيدة امرأة لها إرادة حديدية وتحبّ زوجها حبّاً جمّاً، ولهذا فقد تبادلت مع زوجها الرأي حول رغبة ابنهما جاك في الزواج بابنة السيدة دوبريل، وقد توصّلا في النهاية إلى أن رينولد لن ينجو من بين مخالب تلك المرأة إلاّ إذا ظهر أمام العالم ميتاً، وبعد هذا يهرب إلى مكان آخر، قارة أخرى مثلاً يبدأ فيها حياته من جديد باسم آخر. لكن هذا كان يوجب على السيدة رينولد القيام بدور الأرملة الحزينة لفترة قد تصل إلى أكثر من شهر تلحق بزوجها بعدها في مكانه الجديد، وكان من شأن هذا أن يغيّر رينولد وصيّته فيجعل كل ثروته تؤول إلى زوجته بعد وفاته المزيفة.

ثم هزّ بوارو كتفيه وهو يقول: لم أكن أعرف في أول الأمر كيف كانا سيحصلان على جثة تكون أمام الناس جثة بول رينولد، وظننتهما سيحصلان على هيكل عظمي أو جثة من النوع الذي يحصل عليه طلبة كليات الطب ثم يزيلان معالم الجثة أو الهيكل بالنار أو بالتآكل تحت طبقات الآرض حتى لا يتمّ اكتشاف حقيقتها فيظن الجميع أنها جثة رينولد. لكن الأقدار ساقت إليهما ذلك الصعلوك الأفّاق الذي دخل الحديقة فتشاجر رينولد معه وأراد أن

يطرده من الحديقة، ولكن ذلك الصعلوك كان يعاني من نوبات صرع مما جعله يسقط مغشيّاً عليه أثناء المشاجرة ثم قضى نحبه. بعد ذلك قام رينولد باستدعاء زوجته ثم جرّا جثة الصعلوك إلى كشك الأدوات الزراعية وقد أدركا أن القدر قد ساق إليهما تلك الجثة التي كان صاحبها يشبه بول رينولد طولاً وعرضاً وسنّاً وطابعاً فرنسياً.

وعاد بوارو إلى صمته لحظة يستجمع فيها أفكاره ثم قال مستطرداً: بعد ذلك أظنهما قعدا على ذلك المقعد الحجري المجاور للكشك يتشاوران فيما عليهما القيام به بعد ذلك، وهناك وضعا تلك الخطة بسرعة، فاتفقا على أن تكون السيدة رينولد الوحيدة التي تتعرّف على جثة الزوج، ولن يتمّ هذا إلاّ بإبعاد جاك عن المكان هو والسائق السيد ماستر، كما أنه لم يكن هناك احتمال لاقتراب إحدى الخادمات من الجثة. وعلى الأثر أرسل رينولد رسالة إلى بيونس آيرس لابنه جاك يطلب منه فيها السفر كما منح السائق ماستر إجازة طويلة، ثم أرسل إليّ الخطاب الذي طلب منّي فيه حمايته لأنه كان يتمنّى أن يكون لهذا الخطاب أثره في مجرى التحقيق، وقد كان.

ثم عاد بوارو إلى تفصيلات الخطّة وقال: وبعد أن ألبسا الجثة ملابس فاخرة من ملابس رينولد ألقيا بملابس ذلك الصعلوك بجوار باب الكشك الداخلي، وهي تلك الملابس التي ظنها المفتش غيرود تخصّ البستاني. ثم قام رينولد بطعن الجثة بالخنجر ليظن الجميع أن هناك جريمة قتل حدثت بالخنجر. وكان رينولد قد تعلّم من أخطائه فعمل على أن يكون القيد الذي يقيّد به زوجته شديداً هذه المرّة، كما وضع في فمها كمامة ثم مضى يحفر ذلك القبر

في أرض ملعب الغولف حيث كان يعتقد أن إتمام تجهيز الملعب سيكشف عن الجثة بعد أن تكون قد تآكلت وزالت معالم وجهها، وقد كان من الضروري في رأيه انكشاف الجثة لتتأكّد السيدة دوبريل من أنه قد مات بالفعل فتتوقّف عن ابتزازه.

ثم عاد بوارو لسرد تفصيلات الخطة قائلاً: بعد ذلك كان على رينولد ارتداء ملابس ذلك الصعلوك الرثّة ثم المضيّ إلى المحطة ليستقلّ القطار إلى باريس، ومن هناك يمضي إلى ذلك المكان الذي كان قد قرّر الاختفاء فيه. وقد كان عليه حسب الخطة الموضوعة استقلال قطار الثانية عشرة والربع، ولهذا عمل على تحطيم الساعة بعد أن قام بتقديمها ساعتَين حتى يظن الجميع أن الجريمة قد تمّت بعد قيام القطار بساعتَين فتبتعد الشبهة عن ذلك الصعلوك الغريب الذي غادر المدينة في قطار الثانية عشرة. ولكنه بعد أن كان قد أعدّ كل شيء بدقّة فوجئ بتلك الفتاة بيللا دوفين تقوم بزيارته، وكان يخاف أن تفسد خطّته لأنها تعتمد على التوقيت الدقيق، ولهذا تخلّص من الفتاة بشكل أو بآخر. ثم أكمل تنفيذ خطته حيث ترك الباب مفتوحاً لإيهام المحققين بأن المجرمَين قد دخلا من خلال ذلك الباب، وبعد ذلك قام بتكميم وتقييد زوجته قيداً شديداً محكماً حتى لا يقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه في المرة التي سبقت ذلك، كما أكّد على زوجته أن تذكر للمحققين تلك القصة الخيالية التي روتها لنا عن السرّ والرجلَين المقنَّعَين. وهنا كان الخطأ؛ فمعظم المجرمين يكرّرون الخطط الناجحة في جرائمهم، وقد كانت تلك الليلة باردة، مما جعله يرتدي معطفه فوق ملابسه المنزلية بهدف تركه مع الجثة في القبر حتى يزيد إحكام الخطة فيتوهّم المحققون أنها هي جثته بالفعل، ثم مضى طرف ملعب الغولف وراح يحفر القبر، ثم...

وتوقّف بوارو عن سرده للخطة فقلت له بلهفة: ثم ماذا يا بوارو؟

فقال بوارو بلهجة صارمة حازمة: ثم طالته يد العدالة التي فرّ منها طويلاً... لقد امتدّت إليه يد من خلفه بطعنة خنجر.

ثم التفت إليّ وقال: أظنك الآن فهمت ما كنت أعنيه حين حدّثتك عن جريمتَين، أولاهما هي التي كتب إلينا بشأنها السيد رينولد، وقد حلّلناها الآن. ولكن المشكلة تقع في الجريمة الثانية؛ فخلفها تقع مشكلة معقّدة يا عزيزي هيستنغز، ونحن نحتاج إلى مجهود كبير لحلّها؛ فالمجرم الحقيقي استطاع بذكائه الحادّ استغلال خطة رينولد لمصلحته، مما جعل من العسير حلّ هذه المشكلة الغامضة.

فقلت لبوارو وأنا أتأمله: أنت عبقري بحق يا صديقي! ما كان لأحد أن يستنتج كل هذه الحقائق والأسرار الغامضة.

فارتسمت ابتسامة سرور كبيرة على وجه بوارو ثم قال: مسكين المفتش غيرود، وله ألف عذر في عدم كشفه لأسرار هذه الجريمة؛ فعوامل التضليل فيها كثيرة وخصوصاً تلك الشعرة السوداء التي وجدناها حول مقبض الخنجر.

فقلت ببطء: الحقيقة يا بوارو أني لا أعرف بعد لمن كانت هذه الشعرة!

- إنها شعرة من رأس السيدة رينولد. إن معظم شعرها أبيض، ولكن شعرها كما رأيت بنفسك لا يخلو من شعرات سوداء طويلة. أما غيرود فهو لا يزال يؤمن في قرارة نفسه وإثباتاً لنظريته بأن هذه الشعرة من رأس جاك رينولد. ولكن السيدة رينولد حين تفيق من

غيوبتها سوف تذكر لنا الحقيقة كاملة لأنها لن تقف ساكنة وهي ترى سيف الاتهام معلّقاً على رأس ابنها. إنها لم تكن تتصوّر قط أن لابنها أية علاقة بالجريمة. لقد كانت واثقة من كونه بعيداً عن المدينة عند وقوع الجريمة، ولو أنك كنت قويّ الملاحظة ودقّقت في كلماتها عندما رأته يعود بسرعة بعد وقوع الجريمة لاستنتجت الكثير؛ لقد قالت: "آه، ولكن هذا لم يعُد مهمّاً". ولم يلاحظ أحدٌ دلالة هذه الكلمات في وقتها. لقد كانت هذه السيدة تعاني صدمة قوية جداً عند ذهابها للتعرّف على الجثة في الكوخ خلف الفيلاّ؛ كانت تتوقّع رؤية جثة ذلك الأفّاق الصعلوك حسب الخطة التي كانا قد وضعاها هي وزوجها، ولكن الصدمة كانت عنيفة حين فوجئت بجثة زوجها نفسه أمامها مما جعلها تسقط مغشياً عليها، ولكنها قرّرت رغم أحزانها وآلامها أن تواصل الدور حتى النهاية إكراماً لابنها. لقد كانت مصرّة كل الإصرار على ألاّ يعرف الابن قصة هروب أبيه من العدالة، ولهذا اعترفت أمام الجميع -تلميحاً- بأن السيدة دوبريل عشيقة لزوجها، فلو أنها قالت غير ذلك لأثارت التساؤل حول حصول السيدة دوبريل على تلك الأموال الكثيرة من زوجها.

وتوقّف بوارو عن حديثه فقلت له: وماذا عن أنبوب الرصاص الذي وجدتَه؟

فقال مجيباً: ألا يمكنك تخيّل ذلك؟ لقد وضعه رينولد هناك لتشويه وجه الصعلوك به ليختلط بذلك الأمر على المحققين، وقد كان ذلك أول الخيط الذي قادني إلى الطريق الصحيح في البحث في هذه الجريمة، في حين كان ذلك الأحمق غيرود ينشغل بالبحث عن أعواد الثقاب وأعقاب السجائر. ألم أخبرك من قبل بأن أيّ دليل

مهما صغر حجمه لا يقلّ عن غيره مهما كبر حجمه؟

ثم قال بوارو بعد هنيهة من الصمت: أما بالنسبة لمن قتل بول رينولد فهو شخص كان قريباً من الفيلاّ في نحو الساعة الثانية عشرة ليلاً، وهو يستفيد كثيراً من موت السيد رينولد. ومن هذا المنطلق نجد أن معظم الدلائل تشير إلى السيد جاك رينولد.

فقلت بدهشة: وماذا عن الخنجر؟

فقال بوارو موضحاً: هناك أكثر من خنجر يا عزيزي، ولكن هذا لا يهمّ؛ فأقوى دليل ضد جاك هو الوراثة؛ فإذا كان الأب قاتلاً فلماذا لا يكون الابن قاتلاً كذلك؟ ولكن هذا أيضاً لا أهمية له.

فقلت بدهشة متزايدة: ما المهمّ إذن؟!

فألقى بوارو نظرة على ساعته وقال: متى يحين موعد إبحار السفينة من ميناء كاليه بعد ظهر اليوم؟

فقلت وأنا لا أفهم شيئاً: في نحو الخامسة مساء.

فقال بوارو بهدوء: فليكن، سيمكننا اللحاق بها.

- هل تعني أننا سنسافر إلى إنكلترا؟

فأجاب ببساطة: نعم يا عزيزي، سنسافر.

- لماذا هذه الرحلة المفاجئة؟!

- إنها رحلة من أجل البحث عن... عن شاهد.

فسألت بدهشة: ومن يمكن أن يكون ذلك الشاهد؟!

فقال بوارو مبتسماً: الآنسة بيللا دوفين.

فهتفت: وكيف يمكنك الوصول إليها؟

- أنا لا أعلم شيئاً عنها حتى الآن، ولكن يمكنني أن أستنتج الكثير. فلنفترض أن اسمها الحقيقي هو بيللا دوفين، فإن كان هذا الاسم مألوفاً عند السكرتير السيد ستونر فهي من المحتمل أن تكون ممن يعملن في المسرح. وكون جاك شاباً في العشرين من عمره على قدر عال من الثراء يجعل من السهل عليه التعرّف على بنات الفن في المسرح والسينما وغيرهما، وأنا أرى أن هذا يتماشى مع محاولة السيد رينولد استرضاءها بالمال لتبتعد عن ابنه.

ثم تناول من جيبه صورة فوتوغرافية وهو يقول: أظن أنني سأعثر عليها بفضل هذه الصورة.

كانت تلك الصورة الفوتوغرافية هي نفس الصورة التي عثر عليها في الدُّرج بغرفة نوم جاك رينولد، وقد كان مكتوباً عليها بخط صغير: «مع حبّي وإخلاصي... بيللا».

فأصابتني دهشة كبيرة وأنا أنظر نحو تلك الصورة؛ لقد كانت الصورة تشبه صديقتي الشابة الحسناء سندريلا!

* * *

الفصل الثاني والعشرون

أعدت الصورة إلى بوارو محاولاً ألاّ يرى اضطرابي فقال وهو ينهض: لقد حان وقت السفر إلى لندن.

وفي طريقنا إلى لندن لم أتوقّف عن التفكير في سندريلاّ وعلاقتها ومدى تورّطها في تلك الجريمة. وقطع بوارو تفكيري وهو يقول: هل تذكر صديقنا القديم أرونز متعهّد شؤون الفنانين؟ أظنه سيساعدنا كثيراً في مسألة العثور على تلك الفتاة.

واستغرقنا الأمر بعض الوقت حتى استطعنا الوصول إلى مكتب صديقنا أرونز الذي قابلنا بتَرحاب شديد، ثم قال لبوارو الذي أخبره بما يريده منه: أظن أنني أعرف جميع العاملين في مجال الفن في هذه المدينة.

فسأله بوارو: نحن نبحث عن شابة حسناء اسمها بيللا دوفين، فهل تعرفها؟

فقال الرجل وهو يهرش رأسه: بيللا دوفين؟ ليس هذا الاسم بغريب على أذني. هل لديك صورة لها؟

فأخرج بوارو الصورة من جيبه ثم أعطاها للرجل الذي قال بمجرّد أن رآها: نعم نعم، إنها إحدى الثنائي المعروف باسم ثنائي دولسبيللا.

فقال بوارو بدهشة: ثنائي دولسبيللا؟!

فقال الرجل: نعم يا سيد بوارو، إنهما أختان توأمان ترقصان وتغنيان وتقومان بالألعاب البهلوانية الخفيفة، وهما الآن تقومان بجولة في الأقاليم، وقد حضرتا من باريس منذ نحو ثلاثة أسابيع.

فسأله بوارو: أين يمكننا أن نجدهما على وجه التحديد؟

فقال الرجل ببساطة: يمكنك العودة إلى مسكنك حتى أرسل إليك عنوانهما في صباح الغد.

وقد وفّى الرجل بوعده حقاً؛ حيث أرسل لنا في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي رسالة قصيرة تقول: «الثنائي دولسبيللا يمارس عمله الآن في مسرح بالاس بضاحية كافنتري. حظاً طيباً».

وفي مساء نفس اليوم اتجهنا إلى المسرح وبقينا نشاهد فقرات برنامجه الاستعراضي، حتى بدأت الفقرة الخاصة بالثنائي دولسبيللا، فخفق قلبي بعنف حينما رأيت صديقتي سندريلاّ تتألّق بشعرها الأسود الفاحم وتتقدّم مع أختها التوأم ذات الشعر الذهبي. كانتا متشابهتين في كل شيء فيما عدا لون الشعر، وقد أثارتا ضجّة من الإعجاب الشديد ببراعتهما في الرقص والألعاب البهلوانية المضحكة. لكنني لم أستطع أن أحتمل الموقف فقلت لبوارو: الجوّ هنا خانق، سأنصرف.

فقال بوارو مبتسماً: كما تشاء يا عزيزي، أما أنا فإنني أستمتع بالبرنامج.

وكان فندقنا قريباً من المسرح، فلما وصلت إلى البهو الواسع فيه فوجئت بسندريلا تسرع نحوي وتقول لاهثة: لقد جئت وراءك لأعلم مكانك. لماذا انصرفت وتركت زميلك وتركت العرض؟! صديقك هذا هو رجل المباحث، أليس كذلك؟

كانت تقف أمامي وهي ترتدي زيّاً واسعاً تختفي تحته ملابس المسرح. كان وجهها شاحباً وصوتها خائفاً مليئاً بنبرات التوتّر والاضطراب، وفي تلك اللحظة فقط أدركت السبب الذي جعل بوارو يأتي إلى لندن وأدركت ما كان يريده منها، وأدركت أيضاً في تلك اللحظة فقط أنني أحبّها؛ أحبّها بحق!

فعادت تقول لي هامسة: لقد جاء هنا بحثاً عنّي، أليس كذلك؟

لم أستطع الردّ عليها فجلسَت على مقعد قريب وهي تبكي بكاء شديداً، فجريت نحوها وأمسكت بها وأنا أمسح دموعها هامساً لها: أرجوك ألاّ تبكي يا عزيزتي، واعلمي أنك في أمان منذ هذه اللحظة؛ فسوف أحميك من كل مما يحيط بك من خطر. أنا أعلم الحقيقة كلّها.

فنظرَت إليّ من خلال دموعها المنهمرة وهي تقول بأسى شديد: بل أنت لا تعلم شيئاً.

فقلت لها مؤكّداً: بل أعلم كل شيء يا عزيزتي. أعلم أنك أنت التي أخذتِ الخنجر من الكشك، أليس كذلك؟

فقالت باستسلام: بلى.

فقلت لها مكملاً: وأعلم أنك لهذا السبب طلبتِ منّي الذهاب

بك لمشاهدة كل ما يخصّ الحادث، وأعلم أنك تظاهرتِ بالإغماء لتأخذي الخنجر من الإناء الزجاجي أثناء غيابي لإحضار الماء لك.

فقالت وهي تحني رأسها: نعم، هذا صحيح.

فسألتها: ولكنني لا أعلم السبب الذي جعلك تأخذين الخنجر.

فقالت والحزن يخيّم على نبراتها: كنت أخاف أن تكون بصماتي عليه.

فعقدت حاجبيّ قائلاً: ألا تذكرين أنك أثناء الجريمة كنتِ ترتدين قفازاً؟

فوجدتها تهزّ رأسها بحيرة وهي تقول: بالطبع لا أذكر ذلك. ثم نظرت إلى وجهي بدهشة وشك وهي تقول: ولكن لماذا تسألني هذه الأسئلة؟

فوجدتني أقول لها ببساطة وأنا أنظر في عينيها: لأنني أحبّك يا سندريلا!

فحنَت رأسها إلى الأسفل وكأنما شعرت بالخجل من كلماتي، ثم قالت بصوت خافت خجِل: ولكنك لن... لن تبقي على هذا الحب لو... لو عرفت...

ولم تكمل جملتها، بل رفعت رأسها فجأة وقالت: ماذا تعرف عن علاقتي بهذا الحادث؟

فأجبتها بارتباك واضح: أعلم بذهابك لزيارة السيد رينولد

مساء السابع من الشهر الجاري، وأعلم أنه في تلك الليلة عرض عليك شيكاً بمبلغ كبير من المال فمزّقتِه بكبرياء، وبعد ذلك انصرفتِ من الفيلاّ.

ثم توقّفتُ عن سرد ما لدي فقالت: لماذا توقّفت؟ استمرّ، ماذا بعد انصرافي؟

فقلت لها: لست أدري إن كنت تعلمين أن جاك كان سيعود إلى ميرلنفيل في تلك الليلة أم أنك قرّرت الانتظار على أمل عودته ورؤيته، وأظنك كنت تشعرين بالتعاسة مما جعلك تمشين على غير هدى. أياً كان فقد وصلت إلى حافّة ملعب الغولف في نحو الساعة الثانية عشرة، وهناك رأيت شخصاً و...

وفجأة كانت الصورة تتضح لي كأنها شريط لفيلم سينمائي يُعرَض أمامي. كان السيد بول رينولد يرتدي معطف ابنه في تلك الليلة دون أن يتنبه لذلك، ولأنهما متشابهان في هيئتيهما من الخلف فقد ظنت الفتاة أن ذلك الشخص هو جاك رينولد.

وحين أدركتُ كل هذا قلت لها: لقد ظننتِ أن ذلك الشخص كان جاك رينولد، ولهذا غضبت وأعمتك الغيرة فقرّرتِ تنفيذ تهديدك الذي كتبته في الخطاب، ولهذا هاجمته من الخلف وطعنته بالخنجر. بالرغم من أنك لم تكوني تريدين قتله بالفعل ولكنك قتلتِه.

فأخفت وجهها بكفّيها وهي تقول باكية: أنت على حق في كل حرف نطقت به، على حق تماماً.

ثم رفعَت رأسها نحوي وهي تقول بلهجة حادّة: ولكن كيف تعرف هذا كلّه وتحبّني؟!

فقلت: إذا أحبّ الإنسان فإنه لا يفكر عن السبب في حبّه؛ الحب قَدَر لا حيلة للمرء فيه، ولقد أحببتك منذ رأيتك في ذلك القطار الذي جمعنا أول مرة.

وفجأة انخرطت في البكاء مرة أخرى وهي تقول: لا أعلم ماذا يمكنني أن أفعل! أرجوك... أرجوك أن تحميني! أخبرني فقط بما عليّ أن أفعله.

فقلت لها وأنا أمسك بكفّها لأبثّ في نفسها الطمأنينة: حبيبتي، لا تخافي مادمت إلى جوارك. أنا أحبّك وسوف أساعدك على أن تعبري هذه المحنة. أنا لا أريد مقابلاً لهذا بأيّ شكل، ويمكنك بأن تظلّي على حبّك لجاك إن أردتِ، ولكن حبّي...

فقاطعتني قائلة: هل تظن أنني أحبّ جاك؟

ثم وضعت كفّيها على خديّ وضغطتهما وهي تكمل قائلة: بل أنت حبّي الوحيد، أنا أحبك أنت فقط.

فشعرت عند ذلك أنني أصبحت في عالم آخر؛ عالم ورديّ جميل لا شيء فيه سوى الحبّ والجمال والغناء! وفجأة أيقظني بوارو من ذلك الحلم الجميل فإذا به أمام الباب؛ ولهذا هتفتُ ببيللا: أسرعي بالهرب وسوف أمسك به حتى لا يلحق بك.

ثم اندفعتُ نحو بوارو لأمسك بذراعيه حتى هربت بيللا، ففوجئت ببوارو يقول بابتسامة واسعة: ما هذه الحماقة التي تفعلها يا عزيزي هيستنغز؟! هيا لنتحدّث قليلاً بهدوء.

ثم جلسنا قليلاً وقال لي بوارو: أنت إذن تعرف هذه الفتاة. لماذا لم تخبرني بأنها صاحبة الصورة الفوتوغرافية؟

فقلت له وأنا أشيح بوجهي بعيداً عنه: هذا شأني.

فقال لي ببساطة وبابتسامة هادئة: فليكن، ولكن هل معنى هذا أنك ستعمل معي أم ضدّي؟

وفكّرت قليلاً في سؤاله ثم نظرت نحوه بشك؛ كان وجهه هادئاً متماسكاً إلى حدّ بعيد، فقلت له: سأعمل حسبما يوجّهني قلبي.

فسألني: وماذا لو تعارض هذا مع واجبك؟

فقلت بإصرار: كل ما أرى أنه واجبي هو حماية الفتاة التي أحببتها من كل قلبي، وإذا عملتَ على تقديمها إلى المحكمة فسوف أشهد بأننا (أنا وهي) كنّا معاً في ليلة الجريمة، بل وسوف أشهد أننا وصلنا سوياً إلى لندن.

فسألني: وهل ستقول القَسَم كذباً في المحكمة؟

فأجبته بسرعة: بالتأكيد.

فقال بوارو وهو يهزّ رأسه بابتسامة عريضة: يعيش الحبّ يا صديقي!

* * *

الفصل الثالث والعشرون

كنت أظن نفسي سأبقى في نشوة الحب دائماً ولم يخطر ببالي أنني سوف أفيق منها في اليوم التالي. لم يهدأ حبّي لبيللا أو يقلّ مطلقاً، ولكنني شعرت بخطأ ما قلته في حديثي مع بوارو في الليلة السابقة وشعرت بأهمية واجبي نحو العدالة.

وحين التقينا على مائدة الإفطار كان الوضع وكأن شيئاً لم يحدث بيننا، وبعد بأن انتهينا من فطورنا قلت له إنني سوف أتمشّى قليلاً، فابتسم وقال لي: إن كنت تريد الحصول على مزيد من المعلومات فلا تُتعِب نفسك يا عزيزي. لقد ألغى ثنائي دولسبيللا عَقده مع مسرح بالَاس وذهبت التوأمان إلى مكان لا يعرفه أحد.

فقلت بدهشة: حقاً يا بوارو؟!

فقال: نعم يا عزيزي؛ لقد قمت ببعض التحرّيات في الصباح الباكر. هل كنت تنتظر منّي غير هذا؟

ثم نظر إليّ نظرة فاحصة وهو يقول: يبدو عليك الاضطراب والارتباك يا هيستنغز، وأظنك تتساءل عن سبب عدم إسراعي لتتبّع أثرهما.

فقلت له بدهشة: أنا بالفعل أتساءل عن السبب في هذا!

فقال ببساطة: هذا لأنني لا أعزم على تضييع وقتي في البحث عن إبرة في كومة من القش، كما أنه في مقدوري الحصول عليهما وقتما أريدهما.

فنظرت نحوه بحيرة وأنا أقول: أظن أنه لم يَعُدْ من حقي سؤالك عن خطواتك التالية.

فقال ضاحكاً: بل يمكنك هذا بالطبع يا صديقي. سنعود الآن إلى فرنسا.

فقلت بدهشة: أتقصدنا نحن الاثنين؟!

فقال وابتسامته تزيد اتساعاً على قَسَمات وجهه: سأكون على الأقلّ أمام عينيك لأجعلك تتجنّب مشقة أن تتعقّبني بلحية مستعارة أو شعر مستعار أو ما شابه ذلك.

ثم اكتسب صوته جدّية مفاجئة وهو يقول: فلنترك هذا كلّه الآن؛ فالمهم أن أنقذ حياة جاك رينولد قبل فوات الأوان.

وفجأة أفقت من غفلتي، فقد نسيت في غمرة حبّي أن هناك شاباً بريئاً قد يُحكَم عليه بالإعدام. لقد أنساني حبّي لسندريلا بيللا واجبي لإنقاذ شاب بريء من الحكم بالموت! كيف خطر ببالي أن أفكّر في إنقاذ بيللا بشهادة كاذبة، فأنا بذلك أسوق شاباً بريئاً إلى المقصلة؟! ولكن لا، أنا أعلم أن بوارو يمكنه إثبات براءة جاك دون إدانة بيللا. نعم، عليه أن يفعل هذا، وإلاّ فليس هو المحقق العظيم الذي أعرفه.

وماذا إذا علمَت بيللا نفسها أن حبيبها السابق جاك رينولد قد تمّ القبض عليه بتهمة قتل والده الذي قتلته هي؟ هل ستبقى

هاربة وتتركه ينال جزاء جريمة لم يقترفها؟ إنها تستطيع أن تطالب بالرأفة لنفسها على أساس أن الغيرة العمياء كانت هي الدافع وراء الجريمة، كما أنها كانت تقصد قتل جاك رينولد لا أباه، أي أن الجريمة ستكون القتل الخطأ، والعقوبة ستكون أخفّ بكثير. ولكن يجب أن يجد بوارو مخرَجاً لهم جميعاً من هذا المأزق الشديد، وعليه إنقاذ جاك دونه تقديم بيللا للعدالة.

ولكن السؤال الآن: هل يمكن أن يفعل بوارو هذا؟ هل يمكنه؟

* * *

عدنا إلى فرنسا في قطار البحر الليلي، وفي الصباح ذهبنا إلى سانت أومار، تلك المدينة التي كان جاك قد أُودع سجنها. وهناك لم يضيّع بوارو وقتنا، بل انتهى من الإجراءات الرسمية المعتادة ثم دخل إلى حجرة المحقق السيد هوتيت الذي قام بتحيّتنا وقال لبوارو: كم أنا سعيد بعودتك يا سيد بوارو، أرجو أن تكون قد وُفّقت في رحلتك إلى إنكلترا؟

فهز بوارو كتفيه بلا معنى في حين قال المحقّق: إذن فلا بدّ لنا من الاعتراف بالبراعة لذلك الذئب غيرود. إنه إنسان خشن غليظ القلب لا يعرف المجاملة بالفعل، ولكنه بارع في مجاله كل البراعة.

فقال بوارو بابتسامة هادئة: هل تظن هذا حقاً يا سيد هوتيت؟

- دائماً ما أُضطر إلى الإيمان بهذا الرأي.

فقال بوارو: حسناً، سيظهر كل شيء عمّا قريب. والآن، كيف دافع جاك عن نفسه؟

فقال المحقّق مقطباً جبينه: ما زال عاجزاً حتى الآن عن الدفاع عن نفسه بما نراه معقولاً، وكل ما يفعله هو الإنكار والتزام الصمت. على كل حال سنعيد استجوابه في الغد، ويمكنكما حضور هذه الجلسة.

وقبِلنا دعوته شاكرَين فتنهّد وهو يقول: هذه القضية تثير الحزن بشِدّة، وأنا قلق على السيدة رينولد.

فسأله بوارو: كيف حالها الآن؟

فقال المحقق بأسى: ما زالت في إغماءتها حتى الآن، وهذا من حسن حظّها. وقد قال الأطباء إنها قد اجتازت بالفعل مرحلة الخطر، ولكنهم يؤكّدون أنها ستحتاج راحة تامّة وهدوء أعصاب.

ثم بدا وكأنه تذكّر شيئاً وهو يقول: لقد حُوّلت إليّ رسالة وردت باسمك يا سيد بوارو، وها هي ذي. ثم أخرج من دُرج مكتبه رسالة أعطاها لبوارو قائلاً: لقد أُرسلت باسمي في البداية لأقوم بتسليمها لك.

فنظر بوارو إلى الخط المكتوب به فوق مظروف الرسالة ثم وضعها في جيبه دون أن يفتحها وقال للمحقق: نراك في الغد يا سيدي المفتش، وأشكرك على كل شيء.

ولم نكَد نبتعد عن المحكمة حتى وجدنا السيد ستونر سكرتير السيد بول رينولد في مواجهتنا فتبادلنا التحية، ثم عرض أن يتمشّى

معنا حتى الفندق فسرنا معاً في حين قال له بوارو: ماذا تفعل في هذه الأنحاء يا سيد ستونر؟

فقال ستونر: أنا هنا من أجل الوقوف بجانب أصدقائي؛ فهم في محنة ظالمة.

فقال بوارو: هل أفهم من هذا أنك لا تصدّق أن جاك هو القاتل الحقيقي؟

فقال الرحل بثقة: بالطبع ليس هو القاتل. أنا أعرف جاك جيداً، وبالرغم من تصرّفاته الحمقاء في بعض الأحيان إلاّ أنني أرى أنه بريء تماماً من هذه التهمة البشعة.

وشعرت في تلك اللحظة بمودّة كبيرة نحو ذلك الرجل الوفي، في حين كان هو يكمل قائلاً: وأعتقد أن الكثيرين من الناس يؤمنون مثلي ببراءته، وأظن أن القضاة سيطلقون سراحه في وقت قريب.

ثم التفت إلى بوارو وهو يسأله: ولكن ما رأيك أنت في هذا يا سيد بوارو؟

فقال بوارو: أرى أن السيد جاك في موقف لا يُحسَد عليه.

فقال له الرجل موضّحاً سؤاله: هل تراه مذنباً؟

فردّ بوارو قائلاً: بل أنا أراه بريئاً، ولكن من العسير عليه إثبات براءته.

فقال له ستونر: ولكن جميع الشهود يؤكّدون أن الخنجر لم يكن مع جاك في تلك الليلة، كما قد شهدت السيدة رينولد أن

الخنجر كان موضوعاً بالقرب من السرير.

فقال بوارو: هذا صحيح، وسوف يكون هناك فارق كبير في نتيجة التحقيق بعد أن تستفيق السيدة رينولد من إغماءتها؛ فهي سوف تُزيل الكثير من الغموض حول القضية.

فقال ستونر: بالتأكيد يا سيد بوارو، بالتأكيد.

وبعد انصراف ستونر اتجهنا أنا وبوارو إلى داخل الفندق حيث قلت لبوارو: الموضوع الخاص بالخنجر موضوع مهمّ يا بوارو، ولكنني لم أكن لأصرّح بهذا أمام ستونر.

فقال لي بوارو: هذا أفضل يا عزيزي؛ فمن أفضل الأمور أن نحتفظ بمعلوماتنا قدر الإمكان. وبالنسبة للخنجر فهو ليس في صالح جاك رينولد أبداً. هل تذكر أنني تغيّبت عنك ساعةً هذا الصباح قبل ذهابنا إلى لندن؟

- نعم، أذكر هذا.

فقال مستطرداً: لقد ذهبت إلى الشركة التي عَهِد إليها جاك بصنع ذلك النوع من الخناجر، وهو لم يصنع خنجرين اثنين، بل ثلاثة.

فقلت بدهشة: حقاً؟!

فقال مكملاً: لقد أهدى واحداً لأمّه وأعطى الثاني لبيللا دوفين، ولكنه احتفظ بالثالث لنفسه. معنى هذا أن إثارة نقطة الخنجر لن تكون في صالح جاك على الإطلاق.

فقلت بحماس شديد: ولكنني أعلم أنك ستنقذه يا بوارو،

أعلم هذا، أليس كذلك؟

فقال: وكيف يمكنني هذا أمام موقفك الذي أخذته من بيللا دوفين يا صديقي؟

فقلت له بلهجة حائرة: ولكن هناك بالتأكيد وسيلة ننقذه بها!

فأطلق بوارو زفرة قوية ثم قال: إذن فأنت تطلب منّي القيام بمعجزة! فَلْنَرَ إذن ما في هذه الرسالة.

ثم فتح تلك الرسالة التي حوّلها إليه المحقق وقرأها، وبعد ذلك قدّمها إليّ وهو يقول: من الواضح أن هناك نساء كثيرات في هذا العالم يعانين من أمور كثيرة.

وكانت تلك الرسالة من الآنسة مارثا دوبريل، وقد كتبت فيها: «سيدي العزيز بوارو، أرجو منك الإسراع بالوقوف بجانبنا لمساعدتنا؛ نحن لا نجد غيرك نلجأ إليه. يجب إنقاذ جاك رينولد، أتوسّل إليك راكعةً أمامك حتى تنقذه. مارثا دوبريل».

فأعطيته الرسالة مرة ثانية وأنا أقول: هل ستلبّي طلبها؟

فقال بسرعة: على الفور يا صديقي، وسوف نستأجر سيارة في الحال.

* * *

بعد نحو نصف ساعة كنّا في فيلاّ مرغريت، وهناك استقبلَتنا الآنسة مارثا دوبريل على الباب، وفوجئت بها تتعلّق بيد بوارو قائلة بتوسّل: حمداً لله أنك أتيت. لست أدري كيف يمكنني شكرك

على هذا، لقد كنت يائسة وكانوا يرفضون في السجن أن يجعلوني أقابله. يا إلهي! يكاد قلبي يتمزّق من الحزن.

ثم صمتت هنيهة وعادت تتابع قائلة: هل هو حقاً لا ينكر ارتكابه الجريمة؟ هذا مستحيل! لو أنه فعل هذا فهو بالتأكيد قد أصابه الجنون... لا يمكنني تصديق هذا أبداً.

فقال بوارو هادئاً: أنا أيضاً لا أصدّقه يا آنستي.

فقالت بحيرة: ما الذي يمنعه من الكلام إذن يا سيدي؟!

- ربما كان يتستّر على شخص قريب منه.

فقالت في حيرة وحذر: يتستّر على شخص عزيز عليه؟! هل تقصد أمّه السيدة رينولد؟ هل تعلم يا سيدي؟ لقد كنت أرتاب فيها منذ بداية الأمر؛ فهي التي سترث الثروة كلّها ولم يكن صعباً عليها تمثيل دور الأرملة الحزينة أمام الناس، وبالتأكيد كان السيد ستونر على استعداد لمساعدتها في هذا فبينهما علاقة وطيدة. نعم، هي والسيد ستونر سكرتير السيد رينولد. أعلم أنها أكبر منه سنّاً ولكن الرجال لا يبالون بمسألة السنّ في حالات مثل هذه.

فقلت لها: ولكن السيد ستونر كان عند وقوع الحادث في إنكلترا ولم يكن في المدينة.

فأشارت بيدها وهي تقول: هذا ما يقوله، ولكنه ليس بالضرورة الحقيقة.

فقال لها بوارو: أعتقد أننا إن عملنا معاً فسوف نقوم بإنقاذ جاك بسرعة، فهل تسمحين لي أن أوجّه إليك بعض الأسئلة؟

فقالت: بالطبع يمكنك يا سيدي.

فقال بوارو يسألها وهو ينظر إلى عينيها مباشرة: هل تعرفين اسم والدتك الحقيقي؟

فنظرت إلينا لحظة ثم انفجرت باكية وهي تدفن وجهها بين كفّيها، فقال بوارو بهدوء ورفق مربّتاً على كتفيها: أرجو أن تهدئي يا آنستي. لقد فهمت أنك تعرفين اسمها الحقيقي، ولكن هل تعرفين أيضاً حقيقة السيد رينولد؟

فقالت بدهشة وهي ترفع رأسها: السيد رينولد؟ ماذا عنه؟!

فقال بوارو: أفهم من هذا أنك لا تعرفين. اسمعيني جيداً إذن.

ثم أخذ يشرح لها تفصيلات القضية خطوة بخطوة في حين كانت هي ذاهلة وهي تستمع له، ولما انتهى مما كان يقوله قالت وهي ما زالت على ذهولها: أنت رائع يا سيد بوارو... بل أنت أمهر ضابط مباحث في الدنيا!

ثم قامت بحركة سريعة من مقعدها وركعت بأمام بوارو باكية وهي تقول: أنقذه يا سيدي... أرجوك! أنقذه يا سيد بوارو. جاك بريء، بريء!

* * *

الفصل الرابع والعشرون

في اليوم التالي حضرنا الجلسة الخاصة باستجواب جاك رينولد الذي بدا وجهه شاحباً ونظره زائعاً وكأنه لم ينَم منذ ليال. قال له المحقق السيد هوتيت: السيد جاك رينولد، هل تنكر كونك في ميرلنفيل ليلة وقوع الجريمة؟

فقال جاك: قلت لكم من قبل إنني كنت في شيربورغ في تلك الليلة.

فأشار المحقق إلى أحد رجال الشرطة قائلاً: استدعِ الشاهد.

وكان ذلك الشاهد حمّالاً من حمّالي المحطة، وقد قال إنه رأى جاك هابطاً من القطار الذي وصل إلى المحطة في الساعة الحادية عشرة والنصف. ثم أقبل شاهد آخر من موظفي المحطة ليؤكد شهادة الأول. بعد ذلك نظر المحقق إلى جاك وقال: ما قولك الآن؟ هل كنت في ميرلنفيل ليلة الجريمة أم كنت في شيربورغ؟

فقال باستسلام: لا رأي لي.

ثم أمسك السيد هوتيت المحقق أحد تلك الخناجر المصنوعة من معدن الطائرة ولوّح به أمام جاك رينولد وهو يقول: هل تعرف

هذا يا سيد رينولد؟

فقام السيد كروسير المحامي الخاص بالسيد جاك رينولد وقال: أريد التحدّث مع موكّلي قبل إجابته هذا السؤال.

ولكن جاك رينولد لم يهتمّ بما قاله المحامي، بل قال: نعم يا سيدي، أعرفه، هذا الخنجر هو هدية أهديتها لأمّي.

فقال له المحقق: هل يوجد بقدر ما تعلم خنجر آخر يشبه هذا الخنجر؟

فأجاب جاك: لا يا سيدي؛ فقد وضعت تصميم هذا الخنجر بنفسي.

فأصابتنا جميعاً الدهشة. لقد كان جاك يريد التستّر على الفتاة التي كان يحبّها، بيللا دوفين، وقد كان في سبيل ذلك يعرّض نفسه لحكم الإعدام.

سأله المحقق: أخبرتنا السيدة رينولد أن هذا الخنجر قد أُخذ من فوق منضدة غرفة نومها ليلة الحادث، ولكن السيدة رينولد (ولعلّ هذا يدهشك) كانت مخطئة في أقوالها؛ فلدينا من الأدلة ما يثبت أن هذا الخنجر كان بحوزتك أنت ليلة الحادث. هل تنكر هذا؟

فأشاح جاك بوجهه وهو يقول: لا أنكر شيئاً، ربما كان معي.

فقام المحامي الموكَّل للدفاع عن جاك بمحاولة للاعتذار بأن جاك مصاب بانهيار عصبي يجعله يقول ما هو ضدّه، ولكن المحقق أشار إليه غاضباً ثم نظر إلى الشاب وقال: هل تدرك يا سيد جاك

رينولد أن هذه الإجابة سوف تضطرني إلى تقديمك للمحاكمة؟

فأجابه الشاب بصدق: أقسم لك يا سيدي المحقق أنني لم أقتل أبي.

فقال المحقق وهو يهزّ كتفيه: بالطبع بالطبع، جميع المتّهمين يقسمون على أنهم لم يرتكبوا جرائمهم، ولكن أنت قمت بإدانة نفسك بنفسك من خلال أقوالك وأكاذيبك وبعدم استطاعتك تقديم أيّ دليل يمكن أن يثبت براءتك أو بُعدك عن مكان الجريمة في تلك الليلة التي وقعت الجريمة فيها. لقد ارتكبت هذه الجريمة من أجل المال يا سيد جاك، فقد كنتَ تظن أنك سترث نصف الثروة. والسيدة رينولد والدتك تُعَدّ متستّرة عليك، ولكن المحكمة لن تقسو عليها لأنها مجرّد أمّ تحاول إنقاذ ابنها من حُكم الإعدام، أما أنت... أما أنت فلا بدّ من محاكمتك على تلك الجريمة البشعة التي ارتكبتها... جريمة يستنكرها الله والناس!

وفي تلك اللحظة انفتح الباب ودخل منه أحد الحُجّاب وهو يقول للمحقق: سيدي المحقق، هناك سيدة تقول... تقول...

فقال المحقق بدهشة: ماذا تقول يا رجل؟ أنا أمنع أن...

وقبل أن ينتهي من عبارته وجدنا فتاة صغيرة الحجم تخفي وجهها بنقاب أسود وتدلف إلى القاعة بسرعة، وقد عرفتها. لقد كانت بيللا دوفين، وقد أقبلت أخيراً لإنقاذ ذلك البريء جاك رينولد.

ثم رفعت النقاب عن وجهها فأصابتني دهشة شديدة؛ فلم تكن تلك هي سندريلا برغم الشبه الكبير بينهما، لقد كانت أختها التوأم، وقد تبيّنتُ ذلك بعد رفعها النقاب عن وجهها وخلعها

الشعر الذهبي المستعار عن رأسها، مما جعلها نسخة متطابقة مع تلك الصورة التي وجدناها في غرفة جاك رينولد أنا وبوارو.

قالت الفتاة للسيد هوتيت: هل أنتَ المحقق في قضية مقتل السيد رينولد؟

فقال المحقق: نعم يا سيدتي، ولكن اللوائح القانونية هنا تمنعك بشكل صارم من...

فقالت الفتاة بسرعة غير عابئة بما كان يقوله: أنا بيللا دوفين، أريد الاعتراف بأني أنا القاتلة الحقيقية. نعم، أنا قتلت السيد بول رينولد والد هذا الشاب الماثل أمامكم.

* * *

في اليوم التالي وصلتني رسالة من سندريلا كتبت فيها:

عزيزي الكابتن هيستنغز،

سوف تعلم كل تفصيلات القضية حين تقرأ هذه الرسالة. لقد تعبت من محاولاتي الدائمة لإقناع أختي بيللا بعدم تقديم نفسها للمحاكمة، ولكنها كانت مصرّة على موقفها. ستعلم الآن أني خدعتك حين جعلتك تعتقد أنني بيللا دوفين في حين كنت أنا في الواقع أختها التوأم سندريلا، أعني دولسي دوفين.

سأبدأ القصة منذ تقابلنا لأول مرة في قطار البحر المتجه إلى لندن من باريس. كنت قلقة على أختي بيللا التي كانت قد ذهبت لمقابلة جاك رينولد بعد توقّفه عن إرسال خطاباته لها. كانت تعتقد أنه قد عرف

فتاة أخرى، وقد صدق ظنها في هذا فذهبت لمقابلته بالرغم من معارضتي لذلك؛ فقد كنت أخاف أن يقع لها مكروه أو أن يحدث بينهما ما لا تُحمَد عقباه. وبالرغم من حرصي على مرافقتها غافلتني في باريس واختفت عن نظري، ولها السبب تركتك في كاليه وقرّرت عدم مواصلة الطريق إلى لندن من أجل الاطمئنان عليها.

وقد عثرت عليها في فندق في ميرلنفيل وتناقشت معها طويلاً في عدم الذهاب إلى فيلاّ جنيفييف، ولكنها كانت مصرّة على أن تذهب إلى هناك، فبقيت أنتظرها، ولكنها لم تَعُد إلى الفندق في تلك الليلة ولا الليلة التي تلتها، فشعرت بقلق عارم يعصف بنفسي على أختي. وفي صحيفة المساء من اليوم التالي الثالث من يونيو قرأت نبأ مقتل السيد بول رينولد مما أصابني بخوف شديد وجعلني أتصوّر أنها التقت بوالد جاك رينولد الذي أهانها بشدّة مما أفلت زمام الأمور من يدها ففقدت أعصابها وطعنته بالخنجر. وأعترف أننا سريعات الغضب.

وقرأت بعد ذلك حكاية الأجنبيّين ذوَي القناعَين واللحيتين المستعارتين الطويلتين، مما جعلني أشعر بالاطمئنان على أختي. ولكنني قرّرت أن أبقى هناك حتى يزداد تأكّدي من أنه لا يوجد خطر يهدّد حياتها. وفي صباح اليوم التاسع من يونيو مضيت إلى مكان الحادث بنفسي لتحرّي الأمر، وهناك التقيت بك وقمت باستدراجك لتُطلِعني على الجثة. ولما كان القتيل يرتدي معطف ابنه جاك وكان الخنجر الذي طُعن به هو الخنجر

الذي أهداه جاك لبيللا فقد أدركت أن شقيقتي طعنت الأب ظناً منها أنه الابن جاك، وظننت أنها تركت عليه بصماتها مما جعلني أقرّر في ذلك الوقت أن أسرق ذلك الخنجر. لهذا تظاهرت بالإغماء وسألتك كوباً من الماء، وأثناء تغيّبك لتُحضر الماء قمت بسرقة الخنجر وخبّأته في ثوبي. وبعد ذلك أَخبرتك أنني مقيمة في فندق دي فير، وبالطبع لم أكن أنزل فيه بل كنت أنزل في فندق آخر. بعد ذلك أسرعت بالسفر إلى لندن وألقيت بالخنجر في بحر المانش لأتخلّص تماماً من أداة الجريمة.

ثم التقيت ببيللا في مسكننا في لندن وأعلمتها بما حدث بيننا وما فعلته وطمأنتها إلى أنها قد أصبحت في أمان، فما كان منها إلاّ أن حملقت في وجهي لوهلة ثم غرقت في موجة من الضحك العارم! وبقيت في ضحكها حتى ظننتها أصيبت بالجنون، ولهذا أقنعتها بالتعاقد للعمل في مسرح بالاس حتى تنشغل بالعمل عن التفكير في تلك الجريمة فتصاب بالجنون.

وحين رأيتك في الفندق تصوّرتَ أنني بيللا دوفين وبالطبع ظننتَني سرقت الخنجر من أجل حماية نفسي. لقد تركتك في ظنك هذا حتى تهتمّ بالأمر وتتستّر على أختي اعتقاداً منك أنها أنا، فلو كنت أخبرتك بالحقيقة لما اهتممت بالتستّر عليها بقدر اهتمامك بي. أنا في غاية الأسف على هذا الموقف المشين يا عزيزي هيستنغز، ولكن حالتي كانت حالة يأس شديد ولم يكن أمامي ما أفعله سوى هذا. لم أكن لأحجم عن فعل أيّ شيء من شأنه إنقاذ أختي.

ولكن حين قرأت بيللا نبأ القبض على جاك رينولد في الصحف الإنكليزية قرّرت أن تتقدّم لإثبات براءته من تلك التهمة. تلك هي القصة كلّها يا عزيزي. أرجو أن تلتمس لي العذر.

وفي ذيل الرسالة كان التوقيع باسم دولسي دوفين.

* * *

بعد أن أطلعت بوارو على الرسالة وقرأها بدوره سألته: هل كنت تعرف طوال الوقت أن بيللا دوفين ليست هي صديقتي سندريلاّ؟

فأجاب ببساطة: نعم يا هيستنغز.

فسألته بدهشة: ولماذا لم تخبرني؟!

فهزّ كتفيه وهو يقول: كنت أعتقد أنك يمكنك ببساطة التمييز بينهما حين ترى أختها في الصورة.

فقلت لائماً نفسي: لقد خدعني الشعر المستعار الذهبي. ولكن ما الذي جعلك تتركني على ذلك الخطأ في أثناء وجودنا في الفندق في لندن؟

قال بوارو ببرود: أنت لم تترك لي فرصة أذكر لك فيها شيئاً يا صديقي.

فأكملت سؤالي قائلاً: وبعد ذلك؟ لماذا لم تخبرني بعد ذلك؟

فرفع حاجبيه وهو يجيب: كنت أريد معرفة مدى حبّك

لسندريلاّ، أقصد الآنسة دولسي دوفين. لقد اتضح لي أنك تحبّها حبّاً شديداً، حتى إنك بقيت صامتاً وأنت ترى جاك في موقف غاية في الحرج.

فأطرقت برأسي قائلاً: هذا صحيح، ولكنني لم أكن لأترك جاك يساق إلى الإعدام دون ذكر الحقيقة، لقد كنت صامتاً على أمل نجاحك في إنقاذه من الإعدام.

ثم ألقيت نظرة على رسالتها الطويلة وقلت بلهجة حزينة: لم تذكر دولسي في رسالتها شيئاً يدل على أنها تحبّني أو لا تحبّني!

فقال بوارو بابتسامة عريضة: أرى أن كل كلمة في الرسالة تدلّ على حبّها الشديد لك يا صديقي.

فقلت ولم يتركني الحزن بعد: ولكن الرسالة ليس فيها عنوان المرسِل، فكيف يمكنني العثور عليها؟

فقال بابتسامة ماكرة: عليك أن تترك هذه المهمة لصديقك العزيز بوارو. سوف أعثر لك عليها في أقل من خمس دقائق.

* * *

الفصل الخامس والعشرون

قال بوارو لجاك رينولد وهو يصافحه ويشدّ على يده بعد انتهاء إجراءات الإفراج عنه: تهانئي يا سيد جاك.

فقال الشاب بابتسامة حزينة: كنت أحاول جاهداً حمايتها، حماية بيللا دوفين، ولكن كل محاولتي باءت بالفشل.

وكان ستونر يرافقنا في الطريق إلى ميرلفيل فقال: هل تظن أن تلك الفتاة كانت لتقبل التضحية منك؟

فقال جاك: بالطبع كان هذا ممكناً، ولكن ما مصيرها بعد اعترافها؟

قال بوارو وهو يهزّ كتفيه: المحامي البارع وحده هو الذي يستطيع الحصول على حُكم بالبراءة لها، أو على الأقل حكم مخفَّف؛ فالقضاة في فرنسا يقدّرون العواطف إلى حدّ بعيد.

فأطلق جاك رينولد تنهيدة عميقة ثم قال: أنا في الحقيقة أشعر أنني المسؤول الأول عن موت أبي؛ فلولا قصصي الغرامية تلك، ولولا ارتدائي معطف أبي عن طريق الخطأ لما أخطأت بيللا وقتلته بدلاً منّي. لقد أسأت إليها كثيراً، وقد أهملت في حقها والتفتّ إلى مارثا دوبريل عندما قابلتها أول مرة. أنا في الحقيقة ألتمس لها العذر

في كل ما اقترفت. لقد أثبتت أنها تحبّني حبّاً جمّاً، حبّاً يجعلها تفقد السيطرة على نفسها، وقد أثبتت قوة هذا الحب مرة أخرى بتقدّمها للاعتراف بما اقترفت حتى أنجو أنا من حكم الإعدام.

ثم بقي صامتاً لحظة قبل أن يكمل قائلاً: الشيء الوحيد الذي لا أفهمه حتى الآن هو السبب الذي جعل أبي يترك البيت في تلك الليلة ليخرج متجوّلاً في الحديقة! هل يمكن أن يكون قد فعل ذلك للهرب من السفّاحين الأجانب؟ وهل كانت أمّي على خطأ حين اعتقدت أن أولئك السفّاحين اثنان فقط؟ لا شك عندي في أن الفزع الذي أصابها في ذلك الحين هو الذي جعلها تخطئ في تحديد الوقت.

فقال بوارو بابتسامة هادئة: يمكنك الاطمئنان من هذه الناحية يا عزيزي؛ سوف أقص عليك قريباً وفي الوقت المناسب كل ما يتعلّق بهذه النقاط. هل يمكنك أن تقص علينا الآن كل ما تعلمه عن تلك الليلة التي حدثت فيها الجريمة؟

فأجابه جاك رينولد: بالطبع يا سيد بوارو. عندما عُدتُ إلى ميرلنفيل من شيربورغ (كما ذكر الشاهدان) كنت أريد مقابلة مارثا دوبريل قبل أن أسافر بحراً إلى أمريكا الجنوبية، وقد أردت اختصار المسافة من المحطة والوصول مباشرة إلى فيلاّ مرغريت ولهذا سرت في الطريق الذي يخترق ملعب الغولف، فلما وصلت إلى نهاية الملعب فوجئت بصرخة رهيبة مفزعة تنطلق، فتسمّرت في مكاني لحظات ثم تقدّمت نحو سور الشجيرات الفاصل بين الفيلّتين. كان القمر مضيئاً مما جعلني أستطيع رؤية قبر مفتوح بجواره شخصٌ ملقىً على وجهه في حين انغرس في ظهره خنجر. ثم رفعت رأسي ورأيتها! ظننتها في البداية شبحاً، وهي أيضاً ظنّتني

شبحاً، إذ بقيت تنظر إليّ بفزع شديد ثم أطلقت صرخة خافتة وهي تنطلق عدواً.

ووقف جاك عن حكايته فقال له بوارو: وماذا حدث بعد ذلك؟

فقال جاك بحيرة: لست أدري ما حدث بعد ذلك على وجه التحديد، ولكن أظنني بقيت في ذهولي فترة غير طويلة قرّرت بعدها الابتعاد عن المكان بسرعة. لم يكن ليجول ببالي في ذلك الوقت أني سوف أصبح المتهم الأول في هذه الجريمة، ولكن كل ما كنت أخشاه أن يتمّ استدعائي لأشهد ضدّها، ولهذا فقد ذهبت سيراً على قدميّ إلى قرية بوفيز حيث استأجرت سيارة عُدتُ بها إلى شيربورغ.

وفي تلك اللحظة ارتفعت طرقات على الباب أعقبها دخول أحد خدم الفندق الذي أعطى السيد ستونر برقية قرأها ثم أعطاها لجاك وهو يقول: حمداً لله، لقد استردّت السيدة رينولد وعيها.

فهبّ بوارو واقفاً من مقعده وهو يقول: إذن فعلينا جميعاً الإسراع إلى ميرلنفيل.

ولكن السيد ستونر لم يرافقنا في تلك الرحلة بل بقي في سانت أومار ليكون إلى جوار بيللا دوفين في محنتها، في حين انطلقنا نحن إلى ميرلنفيل، جاك رينولد وبوارو وأنا. ولما اقتربنا من فيلاّ مرغريت قال جاك لبوارو: هل يمكن يا سيد بوارو أن تذهب لأمّي لتخبرها بنبأ إطلاق سراحي؟

فقال بوارو مبتسماً: أتعني أن أقوم بهذا في حين تقوم أنت بإخبار مارثا دوبريل بهذا النبأ؟ فيلكن، اذهب.

فنزل جاك رينولد من السيارة أمام فيلاّ مرغريت في حين ذهبنا بوارو وأنا إلى فيلاّ جنيفييف حيث فتحت لنا الخادمة العجوز فرانسواز الباب، فأخبرها بوارو أنه يريد رؤية السيدة رينولد في التوّ ثم صعد إلى أعلى بمفرده، ولكنه لم يلبث أن عاد وهو يقول: أمر محزن، لقد أصيب تلك الأم المسكينة برضوض خطيرة في رأسها!

وقبل أن أنطق بكلمة أبصرت من خلال النافذة جاك رينولد ومارثا دوبريل مقبلَين تجاه الفيلاّ فهتفت قائلاً: ها قد أقبل جاك ومارثا.

فأسرع بوارو ليقابلهما لدى مدخل الفيلاّ وهو يقول لجاك: يجدر بك ألاّ تدخل الآن يا عزيزي؛ أمّك في غاية الاضطراب الآن.

فقال له جاك: أعلم هذا، ولكن عليّ الصعود لأَطمئنها ولأطمئنّ عليها.

- إذا كان هذا ضرورياً فأنا أرى أنه يجدر بك ألاّ تأخذ مارثا معك.

وفي تلك اللحظة ارتفع صوت السيدة رينولد قائلة وهي تقف في أعلى الدرَج: شكراً لك يا سيد بوارو على خوفك عليّ، ولكنني أريد التعبير عمّا بداخلي بصراحة ووضوح.

ثم بدأت تهبط الدرَج ورأسها ملفوفة بالضمادات وهي تستند إلى ذراع الخادمة الشابة ليونيه، فقال لها جاك هاتفاً: أمّي! أنا...

فقاطعته بصوت عالٍ قائلة: أنا لست أمّك، ولن أكون أمّك أبداً.

فهتف جاك بحيرة ذاهلة: أمّاه!

وبدا للحظة وكأن الاضطراب سيأخذ طريقه للظهور على وجه السيدة رينولد، لكنها استطاعت استرداد توازنها بنظرة من بوارو فقالت لابنها جاك: أنت المسؤول عن موت أبيك؛ نعم، لقد تحدّيتَه بإصرارك على الزواج بتلك الفتاة في حين كنتَ تلعب بعواطف فتاة أخرى مسكينة، وماذا كانت النتيجة؟ لقد مات أبوك ضحية لنزواتك. لن أهتم بأمرك بعد اليوم، نعم، سأختفي من حياتك كلّها. ولن أترك لك ملّيماً واحداً. فلتشقّ طريقك في الحياة بنفسك إن كنتَ تريد حقاً الزواج بهذه الفتاة التي تُعَدّ أمّها أكبرَ عدوّ لي ولأبيك.

قالت قولتها ثم صعدت الدرَج على مهلها في حين كنّا ننظر نحوها وقد أصابنا ذهول من موقفها المفاجئ! وأمام تلك المفاجأة والصدمة العنيفة لم يستطع جاك الاحتمال، ففوجئنا به يهوي فاقداً وعيه؛ فأسرع بوارو لإسعافه قائلاً: آنسة دوبريل، أين يمكننا الذهاب به؟

فقالت مارثا دوبريل وقد أصابها جزع كبير: فلنذهب به إلى منزلي، أقصد فيلاّ مرغريت، وهناك يمكنني الاعتناء به أنا وأمّي. يا إلهي، يا له من مسكين!

* * *

حملنا الشاب إلى فيلاّ مرغريت ثم أرقدناه هناك فوق مقعدَين متجاورَين وهو بين اليقظة والإغماء. وتحسس بوارو كفّيه وقدمَيه ثم قال: أظنه مصاباً بالحمّى. فلتنقلوه إلى السرير حتى أستدعي الطبيب أنا وهيستنغز.

ولم تمضِ دقائق حتى كان الطبيب قد حضر فقام بفحص جاك ثم قال: سوف يتعافى في الغد ما لم يتعرّض لصدمات أخرى، وإلاّ فسوف يستمرّ معه المرض.

ثم قام بعمل بعض الإسعافات اللازمة، وبعدها تركناه ومعه مارثا دوبريل والسيدة دوبريل أمّها، وعدنا إلى البلدة فتناولنا طعام عشائنا ثم أخذنا قراراً بالإقامة في فندق دي بان. وحين ذهبنا إليه سأل بوارو المدير: هل وصلت الآنسة روبنسون الإنكليزية؟

فأجابه المدير: نعم يا سيدي، وصلت منذ قليل وهي الآن في غرفة الاستقبال.

وفي الطريق إلى غرفة الاستقبال سألت بوارو قائلاً: من الآنسة روبنسون هذه؟

فقال دون أن ينظر لي: الآنسة روبنسون هي صديقتك، دولسي دوفين، وأنا الذي طلبت منها تغيير اسمها في أثناء وجودها هنا لئلاّ يعلم أحد بأنها أخت بيللا دوفين التي تمّ القبض عليها.

وحين وصلنا إلى غرفة الاستقبال رأيتها، رأيت حبيبتي سندريلاّ التي قامت تعدو نحوي ثم عانقني بحرارة ولهفة!

قال بوارو بحزم يقطع به فيض الأشواق المتدفّق بيننا: كفى الآن أيّها الصغيران؛ أمامنا عمل هامّ ينبغي علينا إنهاؤه سريعاً. ثم التفت إلى سندريلاّ وقال: هل أتممت المهمّة التي أسندتها إليك؟

فأخرجت من حقيبتها لفّة ورقية أعطتها له، فنظرتُ بدهشة إلى ذلك الشيء الذي كان في تلك اللفة. لقد كان نفس الخنجر

المصنوع من معدن الطائرة! نفس ذلك الخنجر الذي كنتُ أظن أنها ألقت به في البحر.

وقال لها بوارو: هذا حسن يا آنسة دوفين. يمكنك البقاء هنا مع هيستنغز حتى أتمّ مهمة أخيرة.

قالت له بدهشة: أين ستذهب يا سيد بوارو؟

فقال بابتسامة خفيفة: في الغد ستعرفين يا عزيزتي.

فقالت بإصرار: أنا مُصرّة على أن أذهب معك.

فهزّ كتفيه وقال: فليكن يا آنسة دوفين، تعالي إن شئت.

ولم يمضِ نصف ساعة حتى كنّا في طريقنا إلى فيلاّ جنيفييف، وفي ذلك الوقت كان الظلام قد انتشر، وهناك توقّف بوارو أمام باب الفيلاّ وهو يقول: عليّ الدخول للاطمئنان على صحّة جاك رينولد. تعالَ معي يا هيستنغز، ومن الأفضل أن تبقي هنا يا آنسة دوفين فمن الممكن أن تؤذي السيدة دوبريل شعورك بكلمة.

وفتحنا بوّابة الفيلاّ وسرنا في ممرّ ضيّق ثم انعطفنا إلى جانب الفيلاّ حيث لفَت نظر بوارو أنه كان هناك خيال جانبي لمارثا دوبريل وراء ستارة شفّافة في نافذة أرضية عريضة، فقال بوارو: أظن هذه هي الغرفة التي وُضع فيها جاك رينولد.

وفي تلك اللحظة فتحت السيدة دوبريل لنا الباب وقالت: ما زالت حالة السيد جاك رينولد كما كانت. تفضلوا لترَوه بأنفسكم.

ثم تقدّمتنا نحو الغرفة الأرضية التي رأينا فيها خيال مارثا دوبريل، وهناك وجدنا مارثا تعمل في تطريز قطعة من القماش،

وحين أبصرتنا وضعت ما في يديها على منضدة أمامها ثم أشارت لنا بالصمت التام. كان جاك ينام نوماً مضطرباً وهو يتقلّب من جنب إلى جنب في حين كان وجهه محمرّاً من أثر الحمّى، فسألها بوارو بهمس: هل سيزوره الطبيب مرة ثانية؟

فأجابته مارثا قائلة: لن يأتي الطبيب ما لم نرسل له أو نتصل به. أهمّ شيء الآن أن جاك نائم. لقد قدّمت له شراباً مهدّئاً.

وأتمّت قولها ثم عادت تعمل في قطعة القماش التي كانت تعمل فيها عندما دخلنا في حين غادرنا نحن الغرفة تصحبنا السيدة دوبريل إلى باب الفيلاّ. كنت أنظر إليها خائفاً بعد أن عرفت ما عرفته عن ماضيها، كنت أشعر أنني أنظر إلى أفعى رقطاء سامّة.

قال لها بوارو في حين كانت تفتح الباب: أتمنّى ألاّ تكوني قد شعرت بالانزعاج لوجودنا يا سيدة دوبريل؟

فقالت مبتسمة: مطلقاً يا سيد بوارو؛ أنتم دائماً على الرحب والسعة.

ثم بدا وكأن بوارو قد تذكّر شيئاً ما فقال: هل رأيتِ السيد ستونر اليوم في ميرلنفيل؟

فأدركتُ من سؤاله أنه يحاول تضييع بعض الوقت بوقوفه مع السيدة دوبريل وسؤالها بعض الأسئلة التافهة. وقد أجابته بقولها: لا يا سيد بوارو، لم أرَه اليوم، بل لست أعلم إن كان في ميرلنفيل أم لا.

فسألها قائلاً: وهل قابل السيدة رينولد؟

فقالت بدهشة: وكيف يمكنني أن أعرف ذلك يا سيدي؟!

فرسم على شفتيه ابتسامة واسعة وهو يقول: عندك حق. لقد ظننت أنك ربما كنتِ رأيتِه مارّاً من هنا في أثناء ذهابه أو رجوعه. طاب مساؤك يا سيدتي.

وحاولت أن أسأل بوارو عن سبب أسئلته تلك ولكنه نظر إليّ نظرة أدركت معها أنه يريدني أن ألزم الصمت. وبعد ذلك أخذنا سندريلاّ لننطلق نحو فيلاّ جنيفييف، وقبل أن نتحرّك من مكاننا ألقى بوارو نظرة على النافذة الأرضية فرأى خيال مارثا دوبريل وهي لا تزال تعمل في قطعة التطريز فقال بوارو: السيد جاك رينولد يتمتع بالرعاية الطبية طوال الوقت.

وعند وصولنا إلى مدخل فيلاّ جنيفييف أشار لنا بوارو نحو مكان تخفيه مجموعة من الأشجار يمكننا من خلاله رؤية واجهة الفيلاّ والحديقة دون أن يبصرنا أحد، فذهبنا واختفينا فيه. كان الظلام محيطاً بالفيلاّ، وكان من الواضح أن كل مَن بداخلها كان قد أوى إلى فراشه. اقتربنا بحذر من الفيلاّ حتى وصلنا إلى مكان أسفل نافذة غرفة النوم الخاصة بالسيدة رينولد، وقد كانت تلك النافذة مفتوحة وكان بوارو يسلّط نظراته عليها فسألته: ماذا ستفعل الآن يا بوارو؟

فقال باقتضاب: المراقبة.

فقلت بدهشة: ولكن يا بوارو...

فقال قبل أن أتمّ سؤالي: أنا لا أتوقّع حدوث شيء قبل ساعة أو ساعتَين.

وفجأة انطلقت صيحة مرتفعة من داخل الفيلاّ وارتفع صوت يقول: النجدة، النجدة!

وفي نافذة الغرفة المقابلة لتلك الغرفة من الناحية الأخرى (الناحية اليمنى من الفيلاّ) أضيء أحد الأنوار، وكانت الصرخة صادرة من تلك الغرفة لا من الغرفة التي كنّا واقفين أسفلها. وبينما كنّا في ذهولنا فوجئنا في الضوء النافذ من خلال تلك النافذة باثنين يشتبكان في عراك شديد، فصاح بوارو بجزع: يا إلهي، لقد غيّرت غرفة نومها!

ثم انطلق نحو الباب الخارجي للفيلاّ ليطرقه بيديه بعنف وقوّة، وحين أصابه اليأس عاد فتسلّق الشجرة الواقعة أمام النافذة التي كنا واقفين تحتها، ووصل إليها فتبعته سندريلا بسرعة وبراعة فقلت لها خوفاً عليها: فلتكوني على حذر يا حبيبتي.

فقالت بابتسامة كبيرة: هل نسيت أنني بهلوانة يا حبيبي؟ إن تسلّق هذه الشجر ما هو إلاّ لعبة سهلة.

وكان بوارو قد أصبح داخل الغرفة الخالية محاولاً معالجة بابها ليفتحه، ولكنه لم يلبث أن قال: الباب مغلَق من الخارج وسيستغرق وقتاً طويلاً قبل أن يُفتح.

وكانت صيحات الاستغاثة قد بدأت تخفت بيأس، وكنت أنا وبوارو نحاول كسر الباب بأكتافنا ولكن كل محاولاتنا باءت بالفشل، فقالت سندريلا وهي تقفز من النافذة إلى الشجرة: أظن أنني أستطيع إنقاذ الموقف.

وقبل أن ألحق بها وجدتها تقفز في الهواء لتتعلّق بالحاجز البارز فوق النافذة ثم تنتقل بيديها على طول الحاجز حتى تصل إلى النافذة التي كانت تقع على الجانب الآخر من باب الفيلا، فهتفتُ قائلاً بجزع: ربّاه، ستقتل نفسها!

فقال بوارو: لا تخَف يا عزيزي؛ إنها محترفة. ربما كانت الأقدار قد ساقتها في طريقنا الليلة لإنقاذ الموقف. ليتها تصل في الوقت المناسب.

وفجأة انطلقت صرخة في سكون الليل مليئة بالفزع حين دخلت سندريلاّ من النافذة، ثم سمعنا صوت سندريلاّ تقول: أنصحك ألاّ تحاولي التخلّص منّي فلي قبضتان حديديّتان.

وفجأة انفتح باب الغرفة التي كنّا فيها أنا وبوارو، وإذا بالخادمة العجوز فرانسواز أمامنا مرتعدة شاحبة الوجه، فأزاحها بوارو جانباً برفق وسرعة وانطلق وأنا خلفه إلى الغرفة الأخرى من خلال الممرّ الواصل بينهما، ولكن إحدى الخادمات المرتعدات صاحت: الغرفة مغلَقة من الداخل، وقد حاولنا فتحَها عبثاً!

ولكننا فوجئنا بصوت جسم يرتطم بالأرض داخل الغرفة، وبعد ذلك فُتح الباب وخرجت سندريلاّ وهي تشير إلينا بالدخول قائلة: حمداً لله، إنها بخير.

وحين دخلنا رأينا السيدة رينولد على فراشها وهي تلهث بتهالُك وتقول بصوت مبحوح: لقد كادت أن تخنقني!

ثم التقطت سندريلاّ شيئاً ما من الأرض قدّمته لبوارو، وكان هذا الشيء سُلّماً من الحبال المتينة، فقال لها بوارو: يا لها من أداة للفرار! أظنها كانت تستخدمه بعد أن تنتهي من مهمّتها. ولكن أين هي؟

فأشارت سندريلاّ بأصبعها نحو فتاة منكفئة على وجهها وراء السرير وقالت: ها هي ذي.

فسألها بوراو: هل ماتت؟

فأجابته: أظن أن رأسها اصطدم بحافّة السرير مما أدّى إلى مقتلها.

صحتُ أنا بدهشة وحيرة شديدتَين: عمّن تتكلّمان؟ من هذه التي ماتت؟!

فقال بوارو يجيب على تساؤلي: قاتلة السيد بول رينولد يا هيستنغز. لقد أرادت أيضاً قتل السيدة رينولد.

ثم ركعت بجوار الجثة وأنا في قمّة الدهشة، ورفعت طرف الثوب الذي كان يغطّي رأسها فإذا بي أرى أمامي آخر وجه أتوقّع رؤيته في ذلك الوقت، وجه مارثا دوبريل!

* * *

الفصل السادس والعشرون

لم يستمع بوارو إلى أسئلتي المتوالية في تلك اللحظة؛ فقد كان منشغلاً بتوجيه أشدّ اللوم إلى الخادمة فرانسواز العجوز لأنها لم تخبره بأن السيدة رينولد قامت بتغيير غرفة نومها من الجهة اليسرى إلى الجهة اليمنى من واجهة الفيلاّ.

فأمسكت بكتفَي بوارو قائلاً بعتاب: ولكنك كان لا بدّ أن تعرف هذا؛ لقد زرتها هذا المساء.

فقال يبرّر ما حدث: لقد تمّ اللقاء في غرفة الجلوس ولم يخبرني أحد أنها غيّرت غرفة نومها.

فقالت فرانسواز: لقد قامت بتغييرها بعد مقتل السيد رينولد مباشرة؛ لم تحتمل أن تنام مرة ثانية في الغرفة التي هُوجمت فيها ليلة الحادث.

فصاح بوارو بغضب وهو يهوي على مائدة صغيرة أمامه بقبضته: لماذا لم تخبروني بالحقيقة؟ لماذا؟ أنت عجوز حمقاء، أنتنّ جميعاً حمقاوات! وقد كدتُنّ بحماقتكن أن تتسبّبن في قتل السيدة رينولد لولا شجاعة الآنسة دوفين.

ثم اتجه نحو سندريلاّ وعانقها بسعادة مما جعلني أشعر بالغيرة

الشديدة، ولكن بوارو قطع عليّ ذلك الشعور بقوله: استدع طبيباً بسرعة لإسعاف السيدة رينولد، ثم قم باستدعاء الشرطة.

فانصرفت ولم يزل جبيني مقطَّباً من شعوري بالغيرة والضيق، وبعد أن أتممت ما طلبه منّي بوارو عُدت إلى الفندق. وعبثاً حاولت أن أفهم شيئاً مما حدث، ثم في النهاية لم أجد إلاّ أن ألقي بنفسي على الفراش وأستغرق في النوم.

* * *

حين استيقظت وجدت بوارو يقف أمامي يقول وقد تسلّل ضوء الصباح إلى الغرفة: هل تدرك كم الساعة الآن؟ لقد تجاوزت الحادية عشرة صباحاً.

فجلست على سريري متوجّعاً وأنا أضع يدي على رأسي وأقول: لا بدّ أنني كنت أحلم! لقد حلمت بأننا وجدنا جثة مارثا دوبريل في غرفة النوم الخاصة بالسيدة رينولد، وقد عرفنا أنها هي قاتلة السيد رينولد، وقد أوشكت أن تقتل السيدة رينولد.

فقال بوارو بابتسامة واسعة: لم يكن هذا حُلماً يا عزيزي، فتلك هي الحقيقة.

فقلت بدهشة كبيرة: ولكن كيف هذا؟! ألم تكُن بيللا دوفين هي التي قتلت السيد رينولد؟ لقد اعترفَت بذلك أمام المحقق!

فقال بوارو: نعم يا عزيزي، لم تقتل بيللا دوفين السيد رينولد لكنها اعترفَت بذلك لينجو حبيبها من الموت.

فقلت بذهول وعدم تصديق: ماذا؟!

فقال موضحاً لي غموض الموقف: هل تتذكّر ما فعله جاك رينولد ليلة الحادث؟ لقد وصل الاثنان في ليلة الحادث إلى مسرح الجريمة في نفس الوقت، وقد ظن كلّ منهما أن الآخر القاتل، فظنّ جاك أنها القاتلة حين رآها بجوار جثة أبيه في حين ظنّت هي أنه القاتل حين رأته بجوار خط الشجر، ولهذا فزعت بشدّة وانطلقت تجري. ولكنها عندما علمت أنه أصبح متّهماً بقتل والده وأنه قد قُبض عليه لم تحتمل، فعملت على التضحية بنفسها من أجله، وهكذا قدّمت نفسها للشرطة واعترفت بأنها القاتلة.

ثم تراجع بوارو في مقعده قليلاً وهو يكمل قائلاً: أنا لم أقتنع بشيء من هذا كلّه، بل كنت مؤمناً في قرارة نفسي بأن القاتل شخص قام بتدبير جريمته على أساس الخطة التي وضعها رينولد لتضليل الشرطة، مما يعني أن المجرم كان يعرف سلَفاً الخطة التي قام السيد بول رينولد بوضعها، وهذا ما جعلني أشكّ في السيدة رينولد. لكن الوقائع كانت تثبت أن السيدة رينولد ليست قاتلة زوجها، فمن يمكنه أن يعرف بخطة رينولد؟

ثم رفع حاجبه وهو يقول: أظنك تذكر أننا سمعنا معاً مارثا دوبريل تعترف بأنها سمعت تلك المشاجرة التي جرت بين السيد بول رينولد وذلك الصعلوك الأفّاق، وإذا كانت قد سمعت تلك المشاجرة فهي بالتأكيد قد سمعت غيرها، على الأقل حينما كان رينولد يجلس مع زوجته على المقعد الحجري القريب من مكان الحادث حيث كانا يتحدّثان عن تفصيلات خطتهما. هل تذكر كيف أمكنك بسهولة سماع الحديث الذي كان يدور بين جاك ومارثا وهما جالسان على نفس المقعد؟

فقلت بدهشة: ولكن ما الدافع وراء قتلها السيد رينولد؟!

فقال بوارو: المال بالطبع. لقد كان باعتقادها حتى آخر لحظة أن ابنه جاك له نصف الميراث من أبيه الميونير.

ثم جلس على مقعد مجاور لفراشي وقال مكملاً قصته: والآن لننظر إلى هيكل الجريمة بالطريقة التي نظرَت إليها بها مارثا دوبريل. حينما سمعت ذلك الحديث الذي دار بين السيد رينولد وزوجته أدركت أن منجَماً من الذهب لها ولأمها يكاد يختفي في مكان مجهول، فلم يكن منها إلاّ أن تفكّر في منع ذلك. ولكن كانت هناك فكرة أقسى وأخطر تدور ببالها. كانت تعلم أن السيد بول رينولد يقف حائلاً دون زواجها من رينولد، وإذا تحدّى الابن أباه فربما حرمه أبوه من الميراث، في حين كانت مارثا لا تحبّ جاك إلاّ لأنه كان ابن مليونير. قد تتظاهر مارثا بالحب ولكن طبيعتها هي القسوة فقط كأمّها، وهي أيضاً لم تكن على ثقة من حب جاك لها. كانت تعلم أنها سحرته من النظرة الأولى ولكنها كانت تعلم أنه لن يبقى على حبّه لها إذا فرّق والده بينهما بإرساله في مكان بعيد لأية مهمّة لمدّة سنة مثلاً، ولكن كل هذه الاحتمالات يمكن القضاء عليها بالقضاء على السيد رينولد نفسه، ويمكنها بعد وفاته الزواج بجاك لتصبح زوجة لمليونير شاب.

وسكت بوارو هنيهة ثم استطرد قائلاً: لقد أكّد لها ذكاؤها أن الأمر سهل لأن رينولد يدبّر خطة ليوهم بها العالم بأنه قد مات بالفعل، وما عليها بعد ذلك إلاّ أن تحوّل الوهم إلى حقيقة في الوقت المناسب. وهنا يأتي الدليل الثاني الذي جعلني أتوجّه بالشك نحو مارثا. لقد أمر جاك رينولد بصنع ثلاثة خناجر من معدن الطائرة أهدى أحدها لأمّه والثاني لبيللا دوفين، والثالث؟ ألم يكن من المرجَّح أن يكون قد أهداه لمارثا دوبريل؟ يمكننا بهذا

أن نختصر الأدلّة التي يمكن تقديمها ضد مارثا دوبريل في هذه النقاط الأربع؛ أولاً: كان في مقدورها سماع خطة رينولد الأب التي كان يُعدّها ليوهِم الناس بوفاته. ثانياً: كان لها مصلحة مباشرة في وفاة الأب. ثالثاً: كانت ابنة المرأة التي اشتركت مع جورج كونو في قتل زوجها. رابعاً: كانت هي الوحيدة بخلاف جاك التي كانت تحتفظ بالخنجر الثالث.

وعاد بوارو للصمت لحظة ثم قال مكملاً: وعندما سمعتُ عن وجود تلك الفتاة الأخرى بيللا دوفين أدركتُ أن هناك احتمالاً قائماً بأن يتمّ اتهام تلك الفتاة بالقتل، ولكنني شعرت بأن هذا الاحتمال غير صحيح؛ فالإنسان لا يتجوّل في الليل ممسكاً بخنجر في يده، ولكنها من الممكن أن تكون قد أحضرت الخنجر معها لتقتل به جاك. وحين اعترفَت للمحقق ظننتُ أن القضية قد انتهت، ولكن شيئاً ما داخلي كان يقول لي إن القضية لم تنتهِ بعد، فاستعرضت الجريمة وكل تفصيلاتها مرة أخرى وأنا أتساءل في قرارة نفسي عمّن يمكن أن يكون القاتل إن لم تكن بيللا، فكان الشخص الوحيد الذي حامت حوله شكوكي هو مارثا دوبريل، ولكن لم يكن أمامي دليل ماديّ واحد ضدّها.

وحين أطلعتَني أنت على الرسالة التي ارسلَتها لك سندريلاّ قرّرتُ انتهاز الفرصة لأضع حدّاً لما كان بداخلي من شكوك. لقد ألقت سندريلاّ الخنجر الذي سرقَته في بحر المانش لظنّها بأنه الأداة التي استخدمَتها أختُها في الجريمة، ولكن إذا لم يكن بالمصادفة ذلك الخنجر هو الذي أهداه جاك لأختها وكان هو الذي أهداه لمارثا دوبريل فمعنى ذلك أن القاتل هو مارثا دوبريل دون شك. لهذا اتصلتُ بدولسي دون علمك وطلبت منها البحث في حاجيات

أختها عن ذلك الخنجر، ولك أن تتخيّل سعادتي عندما حضرَت سندريلاّ متخفّية تحت اسم الآنسة روبنسون ومعها الخنجر الذي كان لا يزال بين حاجيات أختها. في تلك الأثناء كنت قد أعددتُ خطة أرغم بها مارثا دوبريل على كشف ما اقترفته أمامنا، أي أنني كنت أنوي إعداد كمين لأوقع بها فيه. لهذا اتفقت مع السيدة رينولد على أن تهاجم جاك وتتبرّأ منه وممّا يفعله وتهدّده بحرمانه من الميراث إذا تزوّج مارثا دوبريل، وقد قبلَت التعاون معي، ولكنها لم تخبرني للأسف بتغييرها موضع غرفة نومها، وربما كانت تظنني أعرف هذا التغيير منذ قامت به.

ثم اعتدل بوارو في جلسته وهو يشير بيده قائلاً: وبالطبع حاولت مارثا دوبريل القضاء على السيدة رينولد للتخلّص منها ولتكون الثروة كلّها لجاك، ولكنها فشلت في ذلك كما رأيتَ.

فقلت لبوارو: وكيف أمكنها دخول الفيلاّ دون أن نراها؟

فقال بوارو ببساطة: نحن بالفعل تركناها مع أمّها في فيلاّ مرغريت، ولكنها بالرغم من ذلك سبقتنا ودخلت الفيلاّ دون أن نراها؛ فنحن لم نتركها وراءنا في فيلاّ مرغريت، إذ خرجت من النافذة في أثناء حديثنا مع السيدة دوبريل أمّها، ولقد كادت تنتصر عليّ في آخر لحظة. كان في اعتقادي أنها ستأتي بعدَنا بنحو نصف ساعة أو ساعة أو حتى ساعتَين، فنستطيع إنقاذ السيدة رينولد دون تعريضها للخطر، ولكن مارثا كانت أشدّ خبثاً مما كنت أظن؛ فقد أسرعت قبلنا إلى السيدة رينولد لتقضي عليها قبل أن يمنعها أحد.

فقلت بدهشة: كيف هذا وكنّا نرى خيالها وهي تجلس خلف ستارة النافذة مشتغلة بتطريز قطعة من القماش عندما كنّا

نهمّ بالخروج من الفيلاّ؟!

فقال بوارو: لم تكن تلك التي رأيناها سوى أمّها السيدة دوبريل، ولا تنسَ أنهما متماثلتان في الهيئة يا صديقي، ولقد فعلت الأم ذلك لنظنّ أنها مارثا.

كان تحليل بوارو صحيحاً تماماً، ولكن هذا لم يمنعني من الشعور بالدهشة فقلت: وهل كانت مارثا ترى في نفسها القدرة على قتل السيدة رينولد؟

فقال بوارو مبتسماً: لقد وجدنا بجوار جثّتها محقناً مليئاً بكمّية من المورفين تكفي لقتل أيّ إنسان، كما وجدنا قطعة من القطن مبلّلة بمخدّر، ومن الواضح أنها كانت تهدف إلى تخدير السيدة رينولد ثم حقنها بالمورفين القاتل، وعند الصباح تكون رائحة المخدّر قد زالت فيظن المحققون أن السيدة رينولد حقنت نفسها بالمورفين بسبب اضطراب عقلها بعد صدمتها الأخيرة.

ثم ارتسمت ابتسامة رصينة على وجه بوارو وهو يقول: لكن الأمور لم تمضِ كما كانت مارثا دوبريل تحب؛ فقد كانت السيدة رينولد مستيقظَة تنتظرها وقاومتها بشدّة غير متوقَّعة، فلمّا سمعتنا مارثا ندقّ الباب حاولت أن تقتلها خنقاً قبل دخولنا لإنقاذها. كانت حتى ذلك الوقت مطمئنّة إلى أنه ما من دليل يمكن أن يُثبِت عليها تهمة قتل السيدة رينولد أو حتى السيد رينولد، ولكنها فشلت في ذلك. ولم يكن هذا بفضلي مطلقاً، بل كان بفضل تلك البهلوانة الصغيرة الجميلة ذات اليدَين الحديديّتَين.

وقمت باستعراض كل الأحداث في ذهني ثم قلت لبوارو: متى بالتحديد بدأ شكّك في الفتاة؟

فقال وهو يعود بذاكرته للوراء: هل تذكر ذلك اليوم الذي وصلنا فيه إلى ميرلنفيل أول مرة؟ لقد مررنا بفيلاّ مرغريت ورأينا الفتاة الحسناء مارثا دوبريل. لقد قلتَ أنت عنها إنها بالغة الجمال في حين قلت أنا إنني رأيت فيها فتاة ذات عيون خائفة، ولكن ذلك الخوف لم يكن من أجل جاك لأنها لم تكن تعرف أن جاك كان موجوداً في ليلة وقوع الحادث، بل كانت خائفة من أجل نفسها.

فهززت رأسي باقتناع ثم سألت بوارو: بالمناسبة، كيف حال جاك رينولد؟

هزّ بوارو رأسه وهو يقول: لقد تحسّن تحسّناً كبيراً، وهو ما زال في فيلاّ مرغريت، ولكن السيدة دوبريل اختفت تماماً ورجال الشرطة يبحثون عنها في كل مكان. نحن لن نعرف الحقيقة أبداً ما لم يقبض رجال الشرطة على السيدة دوبريل.

فسألته قائلاً: وهل علم جاك بما حدث؟

فأجابني قائلاً: لا، لم يعلم بعد.

قلت: ستكون صدمة جديدة قاسية عليه.

فقال بوارو: بالطبع ستكون صدمة قاسية، ولكن ذلك الحب الذي ربطه بمارثا دوبريل لم يكن حبّاً حقيقياً، وهي لم تكن تحبه إلاّ من أجل المال، وقد جعلها هذا تبذل جهدها ليبقى أسيراً لجمالها الباهر. لم يكن يعلم أن الجمال وحده لا يكفي ليكون الحب قوياً، أما الحب القوي الحقيقي فهو الذي كان ولا يزال بين جاك رينولد وبيللا دوفين. لقد كاد يضحّي بنفسه عندما عرف أن أصابع الاتهام تتّجه نحوها كما أسرعت هي الأخرى للتضحية بنفسها عندما سمعت نبأ القبض عليه. كانا بريئَين، وبالرغم من

ذلك فقد تقدّم كل منهما لإنقاذ الآخر. هذا هو الحب الحقيقي يا عزيزي، مثل حبّك لدولسي دوفين، ذلك الحب الذي جعلك (ولو لليلة واحدة) تتخلّى عن مبادئك لإنقاذها وحمايتها من العقوبة.

* * *

وكما توقّع بوارو استطاع جاك تحمّل الصدمة بشجاعة بعد أن علم بمصرع مارثا دوبريل، كما استطاعت أمّه بحنان ورقّة أن تجعله يجتاز تلك المحنة حتى أصبحا يعيشان في سلام ولا يكادان يفترقان.

كان بوارو قد استطاع إقناع السيدة رينولد بمصارحة ابنها بكل شيء خاص بماضي أبيه؛ قال لها بوارو في هذا: لا يجدي إخفاء الحقائق شيئاً يا سيدة رينولد. عليك أن تكوني شجاعة وتصارحي ابنك بكل شيء خاص بماضي أبيه.

فما كان منها إلاّ أن وافقت على ذلك وهي مليئة بالحزن لما سيعرفه ابنها عن ماضي أبيه الذي كان هارباً من العدالة، ولكن بوارو خفّف عنه ذلك بقوله: تلك هي الحياة يا ولدي، واعلم أنه لا ذنب لك في أيّ شيء مما حدث، واعلم أيضاً أن العالَم لا يدري شيئاً. ولا يوجد ما يدعوني إلى إخبار الشرطة بما أعرفه عن أبيك. لقد جئت إلى هنا للعمل لحسابه لا لحساب الشرطة، ويكفي أنه دفع ثمن ما فعل واقتصّت منه العدالة.

وكان هناك العديد من النقاط الغامضة على شرطة باريس وميرلنفيل، ولكن بوارو استطاع بذكاء أن يزيل شكوكهم تجاه تلك النقاط.

* * *

بعد رجوعنا إلى لندن بنحو أسبوعَين فوجئنا بجاك رينولد يُقبل علينا بوجه ملؤه العزم والتصميم ويقول: لقد حضرت لتوديعكم يا سيد بوارو. سأرحل إلى أمريكا الجنوبية؛ فقد كانت لأبي مصالح كثيرة فيها وعليّ البدء هناك من جديد.

فسأله بوارو: هل ستكون بمفردك هناك؟

- لا يا سيدي، بل ستأتي معي أمّي، كما سيكون السيد ستونر سكرتيراً خاصاً لي. إنه يحب طواف العالم.

فسأله بوارو بلهجة خاصة: ألن يكون معكم أحد آخر؟

فظهر شيء من الخجل على وجه جاك وهو يقول: هل تقصد...؟

فقاطعه بوارو: نعم، أقصد تلك الفتاة التي تحبّك حبّاً قوياً جعلها توشك أن تضحّي بحياتها من أجلك.

فأشاح بوجهه وهو يقول: وكيف يمكنني أن أتقدّم إليها بعد كل ما حدث؟ ماذا يمكنني أن أقول لها؟

فقال بوارو وهو يضع كفّه على كتف جاك: قل لها ما تقول يا رجل. المرأة التي تحبّ تكون على استعداد للتضحية بكل شيء والتسامح في أيّ شيء.

- وهل تظنها تقبل الزواج بي وأنا ابن... ابن أبي؟

فابتسم بوارو ابتسامة عذبة وهو يقول: أنا أعرف امرأة قوية شجاعة وقفت إلى جوار زوجها بالرغم من كل ما عرفته عنه.

فقال جاك: هل تقصد أمّي؟

– نعم يا رجل، وأنت ابن أمّك كما أنك ابن أبيك. اذهب إلى بيللا واعترف لها بكل شيء، ثم... ثم ليكن ما يكون بعدها.

بدا التردّد على وجه جاك فعاد بوارو يقول له: اذهب إليها رجلاً كاملاً صهرته التجارب وأصبح في مقدوره مواجهة مصاعب الحياة بعقلية جديدة خبيرة رائعة. اطلب منها أن تكون شريكة لك في هذه المرحلة الجديدة من حياتك. أنا واثق من أن رباط الحب بينكما أقوى من كل ما تظنه؛ فهذا الحب ازدادت قوّته بالأحداث والتجارب المتوالية. ألا يكفي أن كلاً منكما كان على استعداد للتضحية بحياته من أجل الآخر؟

أما أنا، الكابتن آرثر هيستنغز راوي هذه القصة، فقد عرض عليّ جاك رينولد أن أعمل مديراً لإحدى مزارعه في جمهورية تشيلي. ولكن الشيء المهم هو أنني لن أذهب إلى هناك قبل الزواج بحبيبة القلب، سندريلاّ.

* * *

(تمت)